محمد شكري

پول بولز وعزلة طنجة



منشورات الجمل

محمد شكري

بول بوولز وعزلة طنجة

محمد شكري

بول بوولز
وعزلة طنجة

منشورات الجمل

ولد محمد شكري عام ١٩٣٥ في الريف. انتقلت عائلته الى طنجة اثر مجاعة. دخل المدرسة بشكل متأخر (في أواخر العقد الثاني من عمره). تُرجمت أغلب أعماله الى العديد من اللغات العالمية. يقيم اليوم في طنجة. صدر له: مجنون الورد، قصص (بيروت ١٩٧٩)، الخبز الحافي، سيرة ذاتية روائية (الدار البيضاء ١٩٨٣)، الخيمة، قصص (الدار البيضاء ١٩٨٥)، السوق الداخلي، رواية (الدار البيضاء ١٩٨٥)، زمن الأخطاء، سيرة ذاتية روائية (الدار البيضاء ١٩٩٢)، جان جنيه في طنجة، مذكرات (الرباط ١٩٩٣)، تينسي وليامز في طنجة، مذكرات (الرباط ١٩٨٣)، السعادة، مسرحية (الرباط ١٩٩٤) و بول بوولز وعزلة طنجة (الرباط ١٩٩٦).

الطبعة الأولى، كولونيا – ألمانيا

الغلاف: سالمة صالح

تطلب كافة اصدارات «منشورات الجمل» من الناشر مباشرة أو من:

المركز الثقافي العربي: لبنان – بيروت ص.ب. (٥١٥٨/١١٣)

Postfach 600501

50685 Köln - Germany

Tel: 0221 73 69 82

Fax: 0221 732 67 63

اذا أنت كنت عدوي فسأقتلك من اجل المال ، إذا أنت كنت صديقي فسأقتلك مجانا .

إنه مَثَلٌ من السوق الداخلي أورده إيرا كوهن Ira Cohen في مقالة كتبها عن بول بوولز بعنوان Mimbad Sinbad.

طنجة الأسطورة لماذا ؟

ان الحنين المبالغ فيه الى طنجة، والتحسر على ماضيها الدولي لَيَبْدُوانِ لي عبثا؛ لأنّ كل فترة، من تاريخ مدينة، أو بلد، لها قيمتها و جمالها كما في حياة الانسان: إذ كل مرحلة من حياته لها سحرها، لكن الأكثر عبثا هو عندما يتحسر على طنجة – الأسطورة، طنجة التي لم نعد نجد فيها ما كنا نجده فيها ويلائمنا، طنجة التي أصبح يحنّ اليها، من بعيد أو قريب، هؤلاء الذين لم يعيشوا أبدا فيها. «كل مباهج طنجة اختفت!» هكذا يقول عنها أكثرهم تشاؤما وحسـرة.

طنجة – الأسطورة نعم، هذا لا يُنكَر، لكن لمن؟ طنجة – الفردوس المفقود نعم، لأنّ هناك الشاهدين على نعيمها، لكن لمن؟ طنجة – السحر الذي لا يُقهَر، هذا أيضا نعم، لكن لمن؟

ما أكثر الذين تكلموا أو كتبوا عن طنجة فقط من خلال أهوائهم، و ملذاتهم، أو نزواتهم أواستجمامهم أو حاولوا نسيان شقائهم فيها!

إذن فطنجة هي، لبعضهم، ماخور أو شاطىء جميل أو مستوصف

مريح.

اذا نحن تكلمنا عن طنجة، من خلال بول بوولز و زوجته جين آور، فيحق لهما أن يتحسرا ويحنّا اليها، ويتذكرا بكارتها المُغتَصَبَة؛ لأنّ لهما حنينهما في ماضيها. غير أن الأسخف في الحسرة السائبة، والحنين اللقيط، قديما وحديثا، هو ما يُكتب عنها، قليل أو كثير، من مقالات، واستطلاعات هشة. . .

ان أكثرية ما يُكتب عن طنجة، اليوم، هي كُتُبُ – بطاقات بريدية (كارت بوسطالات) . قد يمكث في طنجة كاتب ما أسابيع ويكتب عنها كتيبا متبجحا بما يعرفه عن خفاياها، وجغرافيتها السرية، وأمجادها الغابرة والمشاهير الذين عاشوا فيها أو مرّوا بها. إنهم لَكَثيرون الذين يكتبون عن المغرب بطاقات بريدية فَيُهَرّجون الكتابة ويسطحونها، بحثا عن شهرة مجانية، فُقّاعية، وزبائنهم القراء هم ايضا هؤلاء المرضى بالافتتان، والغرائبي وماوَرثوه من ألف ليلة وليلة أو ما تَبَقّى في ذاكرتهم منها: «لأنّ في طنجة القرن العشرين هناك دائما سحر ألف ليلة وليلة متأهّب لينبثق.» أسفا لهم. إنّ مَثلهم مَثَلُ سائح ركب جملاً فقد أصالته جيء به الى أحد شواطيء طنجة (أو وُلِد فوق رمال الشاطيء الطنجي نفسه) وأُخِذَت له صورة أو صوَّر فأرسلها الى قريب أو صديق قائلا له: إني أستمتع بصحراء المغرب. . . ! إنهم كتّاب محطات السفر هؤلاء: فهم قد يخرجون من غرفة في بلدهم ويدخلون الى غرفة أحد فنادقنا في المغرب ويزعمون أنهم زاروا بلادنا. قد يتناولون نفس أطعمة بلدهم في بلدنا. وفي أفضل الأحوال، إذا هم

تجرأوا، فإنهـــم يطعمون الكسكس، و شيش كباب... غير أن الأفظع من هذه السطحية هي الكتابة عن طنجة بحقد وعنصرية، والاستخفاف ببسطاء أهلها كما فعل الصحافي ألبيرطو إسبانيا Alberto Espaῆa الفاشيستي فـــي كتابـه « La pequeῆa hístoria de tãnger تـاريخ طنجـــة الوجيز»[1]. ويبقى كتاب: «مذكرات شيخ طنجي، Memorias de un viego tangerino لإسحاق لاريدو، عميد الصحافيين، في زمنه، أهمّ وثيقة تاريخية واجتماعية عن طنجة دون تحيّز. أما ألبيرطو إسبانيا، رغم دلائله التاريخية، فانه لم يهتم، في كتابه، إلاّ بالسلطة الحاكمة، الأجنبية والوطنية، وببعض أعيان طنجة المغاربة المستسلمين الى طغيان الاستعمار وهيمنته.

يقول بو ل بوولز: «فيما يتعلق بالسياحة فإنني أعتقد بأنها تساهم في تدمير العالم: فالسياح لا يتركون شيئا وراءهم؛ فهم يدمرون جميع الدول التي يعبرونها. ونحن نعلم ذلك جيدا: فالسواح لم يعودوا يجدون معاناة في الذهاب الى حيثما شاءوا بفعل ذلك الاختراع الذي يُسمى الطائرة. إنه أمر مُزعب. بالنسبة لي،[2] هذا النوع من النقل يصلح فقط لقطعان الماشية، من غنم، وثيران لنقلها الى المسلخ. إن الطائرة قد تصلح للتحرك بشكل سريع، لكن ليس للسفر؛ اذ السفر يعني ان تكون مستعدا للرحيل لعدة أشهر وليس لساعات معدودة. والسياح حيثما يكونون يسخرون من هذه الفكرة. إنهم يريدون الوصول بسرعة والاستقرار في أحد الفنادق. وهذا كل شيء. فهم لا يأبهون لاكتشاف بلدٍ ما. وفي العصر الذي نعيشه الآن لا يفكر الناس

سوى في عامل الزمن. إنهم يذهبون لتمضية عطلة قد تستغرق ما بين ستة أسابيع أو ثلاثة، حسب الأحوال. فلماذا هذا؟ ألم يكن من الأفضل لهم أن يبقوا في بيوتهم؟» هذه الفكرة عبّرعنها بوولزأيضا أكثر عمقا في "السماء الواقية[٣] "The sheltering sky على لسان بورط Port في نهاية الأربعينات: «فالفرق بين السائح والمسافر هو أن الأول يقبل حضارته دون أن يسائلها؛ ليس هكذا المسافر الذي يقارنها مع الحضارات الأخرى ويرفض المظاهر التي لا تعجبه. "إن بوولز هنا يرثي للانسان الذي لم يعد يخلق زمنه تاركا الزمن يخلقه دون مقاومة حيث يقول: «... فبينما السائح يستعجل عموما عودته الى منزله بعد أسابيع أو شهور، فإن المسافر، الذي لم يعد ينتمي أكثر الى مكان ما إلاّ للآتي، ينتقل ببطء مدة سنوات من قطر الى آخر من الأرض.» ولكن بوولز يعرف جيدا أن المسافر الحقيقي قد انتهت رحلته الاستكشافية، والثقافية، والحضارية الى حدود العشرينات والثلاثينات لتبدأ زيارة السائح الترفيهية. لم يعد المرء يخرج من بلده ليغامر في بلد آخر إلاّ من تُضطَرُّهم مهامهم العلمية، والأدبية، والصحافية والفنية.

هذه «الطنجة» التي أعيت المؤرخين والباحثين عبثا عن أصل من بناها هي – حسب الأسطورة الطنجاوية –وليدة الطوفان: فقد عادت الحمامة وصاح نوح: «طين جا» فإذا فُلْكُه ترسو قرب «هضبة الشرْف». يتقاطع في طنجة الاسطورة والتاريخ. غير أنها لا تبوح بسرها الخالد؛ فهي تعيش في ديمومة ذاكرة صمتها – اللغز، السحر

والحكمة. غير أنّ ميلان كونديـرا Milan Kundera يبررهـذا الطرح اللغزي في قوله: «إنّ صراع الانسان في الحياة هو صـراع الذاكرة ضد النسيـان.»

إن هـؤلاء الذين يأتـون اليوم الـى طنجـة، بحثـا عـن نفـس الحيـاة التـي عاشـها الذيـن مـن قبلهـم – أو مـرّوا فقـط بهـا – لا يهمهـم أن يخيـب أملهـم فيـها. يكفيهـم أن يجـدوا صـدى حكايـات ترضيهم عمّـا مضى. مـا يهمـهـم هـو أن يعيشوا ولـو على ذكرى ما تَبقّى مـن آثـار السابقـين لهـم فيها.

مجيء بول بوولز الى طنجة

يقول عنـه تينسـي وليامـز: «إنّ بـول بوولـز هـو أهـمّ كثيرا مـن الأماكن التـي يكـون فيها.» ويقـول بوولـز، فـي رسالة الـى أليك فرانس Alec France: «لـم أحـسّ أبـدا أننـي أعـرف المكـان كفـاية جيـدة بحيـث أكتـب عنـه.»

بـدءاً من بدايـة الخمسينـات، راح رواد جيـل البيتنكس [٤] The Beatniks يغـزون طنجـة: وليـام بـرّوز، Willam Burroughs آلـن جينسبـرغ، Allen Ginsberg (عـاد إليها آخر مـرة فـي ديسمبـر٩٣ لزيـارة بوولـز) جـاك كـرواك Jack kerouac (زارها عام ٥٧) وآخـرون. لقـد انبثقت كتابتهم لتمثل تمـردا جديـدا لجيـل الغضـب الاميركي وضياعـه بعـد الحرب العالمية الاولى. أما بـول بوولز، إذا استثنينـا انخراطـه النَزْوي في الحزب الشيوعي الذي نـدم

عليه وطرد منه، بعد أخذ وردّ، (من ٣٩ الى ٤٠) فقد افتتن بالرحلات في باكر شبابه التي حفزته اليها، قهرا، تربية والديه القاسية. «لكن يظهر أنه في العام ٣٩ ما كان ينبغي لبول هو أن يتخذ قرارا: الدهاء والانتهازية، اذا كنت تريد العمل في المسرح، في تلك الفترة، وبول كان يرغب فيه. لقد كان من المجدي أن تكون عضوا في الحزب الشيوعي المسيطر على النقابة. وسيطردك اذا أنت لم تكن منخرطا فيه. وليس فقط ذلك، وانما أيضا يجب عليك أن تكون ستالينيا؛ لأنّ فرع حزب نيويورك كان ستالينيا وله تعاطف مع اليسار.» هكذا لاحظ فرجيل طومسون بصدد بوولز.

وسيستمدّ بوولز، من هذه الرحلات، معظم كتبه الافتتانية، والغرائبية؛ Exotiques لانه لاتكاد تخلو قصة له أو رواية من رحلة بعيدة أو قريبة: فهو كاتب مشّائي (نسبة الى الارسطوطاليسية) Péripatéticien كما يقول عنه دانييل روندو Daniel Rondeau.

جاء بول بوولز الى طنجة صحبة آرون كوبلاند Copland Aaron (تلميذ ناديا بولانجي) مَثابةَ تلميذ يتبع أستاذه ويَروي عنه. وَصَلاها، بعد توقف في وهران دام يومين، في الثامن من غشت العام ٣١ مرورا بسبتة وتطوان. إن أليس طوكلاس Alice Toklas هي التي نصحت بول بوولز بهذه الرحلة وأيدتها جرترود شتاين المُهيْمنة.(٥) كان من عادتها استقدام أحبّائها الاميركيين الى باريس، خاصة المبدعين منهم. إنها تشجعهم على المغامرة

والاسفــار البعيدة. وسيرث منـها بوولـز هـذا الارث، فـي كتاباتـه، عنـدمـا سيستقـرّ فـي طنجة نهائيـا صحبـة زوجته جين آور Jane Auer العام ٤٧. غير أنّ أسفار بول هي من أجل اكتشاف مغامرات الافكار وليس من أجل المشاركة في ثورة مثل بايرون في الإغريق، ومالرو أو أورويل في إسبانيا.

جاء بول بوولز ليقضّي في طنجة صيفا، مثل العابرين بها، فإذا به يخلد فيها. ومن الملاحظ أن معظم الذين يفدون إليها، من المبدعين الأجانب، يجيئونها في الصيف ثم يغادرونها بعد فترة تطول أو تقصر: لقاء، حب، أو زواج في ميناء. لا أحد شاهد. لكن بول ماذا أبقاه فيها بقية عمره؟ مناخها؟ بساطة العيش فيها؟ «المعجون» الساخن مصحوباً بكؤوس من الشاي المنعنع، والكيف المشاع بيعه حتى في دكاكين التبغ Débits في ذلك الوقت أم أبقته فيها دوليتها، وحرية العيش فيها، وكل سحر أسطورتها وعجائبيتها؟ كل ما نعلمه هو أن بقاءه فيها لم يفسره أو يبح به بمعنى محدد وصريح. إنه لا يجيب إلاّ بمراوغة و مواربة كعادته؛ فهو حريص على أن يكون متطابقا مع ظله. واذا شاء يقول بسخريته المعهودة: «لقد جئت وبقيت». وأسأله:

– ولماذا بقيت العمر كله؟

– أوه! لانه هكذا. ولست أنت الاول الذي يسألني مثل هذا السؤال، لكن ليس لديّ ما أخسره اليوم اذا أنا أجبتك. كانت الحياة جميلة جدا في ذلك الزمان. (يقصد من الثلاثينات الى حدود الاستقلال ٥٦) كان في امكانك، مثلا، أن تسمع أصوات الزيزات

فوق أشجار الأوكالبتوس وأنت جالس في رحبة مقهى باريس، أما اليوم فلن تسمع إلاّ ضجيج المحركات المُصِمّة. . . !

هكذا يجيب بصيغ مختلفة كل من يسأله عن هذا الخلود الطنجي الذي لم يندم عليه، رغم حسرته على ماضي طنجة. لكن إذا كان بوولز يريد أن يبقى المغرب كما عرفه في الثلاثينات والأربعينات فهي فكرة استعمارية محضة. يقول في رسالة الى صديقه أليك فرانس Alec France (طنجة ٢. ٣. ٧٥.) : «من بين أسباب بقائي هنا هو أكيد أنه عند وصولي وجدت شعبا منسجما بروعة مع تخيلاتي Fantasías." وفي روايته "دعه يسقط Let it come down " يقول: «من مفاتن المنطقة الدولية (طنجة) كان يمكن الحصول على أيّ شيء مادام يُسْتطاع أداء ثمنه و أن يُفْعَل أيّ شيء: فكل شيء كان قابلا للرشوة. كانت قضية الثمن. «وحين ينتهي كل شيء، بالنسبة له، يكتب (في ٢. ٨. ٨٩) الى ريجينا فاينرايش Regina Weinreich : «إنه من الصعب العيش في بلدٍ مسلمٍ دون أن يكون المرء مسلما. » وفي «السماء الواقية» يقول حَمُو التهامي: «لا يمكن أن تحدث إلاّ أشياء سيئة حينما يجتمع النصارى والمسلمون. » إنه لَصَعْبٌ إقناع بوولز بأن «كل ماهوماض هو مجرد رمز» كما يقول غوته Göethe. ولذلك فهو يحاول أن يقهر هذا الفناء الجميل، ولو باستجوابات، لإحياء ذكراه عندما أقعده المرض ولم يعد يكتب. لكن بول بوولز يحب المغرب ولا يحب المغاربة. هذا لا رَيْبَ فيه. وحتى محاولة دفاعه عنهم، في روايته «بيت العنكبوت The spider's house »، خيَّب أمله فيهم؛ لأنه كان يعتقد أنهم

سيعودون، بعد استقلالهم، الى حياتهم التقليدية. لكنه فوجىء بتَأورِبهم (يتشبهون بالأوروبيين) أكثر من الاستلاب الذي سممهم في عهد الاستعمار. إن المغرب الذي أحبه بوولز لن يرجع. ولذلك فقد انتهى، بالنسبة إليه، مع بداية الاستقلال. والصورة التي ظلت راسخة في ذهنه ليست فقط عن «الطنجاويين» بل عن كل المغاربة. مثلا، إنه يقرأ هذه الفقرة من أحد كتبه في الفلم الذي أنجزه عنه سيباستيان هرت Sebastian Hirt: «دخلت باخرة للقراصنة الى خليج المدينة مع بداية النهار. وأرسلنا أربعة رجال لسحبها الى الميناء. ثم توجهنا الى نقطة عند سفح الاخاديد وبقينا ننتظر. وعندما اصطدمت مقدمة السفينة بالرصيف توجهنا نحوها سباحة فالتقينا بعدد من ركابها الذين ألقوا بأنفسهم الى البحر. إن ربان السفينة كان الى جانب أفراد طاقمها فوق ظهرها. وهذه المرة تلقينا الامر بقتل أقلّ عدد ممكن. لقد تمكنا من أسرهم جميعا أحياء إلاّ امرأة انجليزية كانت تغرق. لقد كانت السلاسل جاهزة. وجعلنا الاسرى يسيرون أمامنا عبر شوارع طنجة.» ثم يضيف: «لقد كانت لهم أوامر للاستيلاء على جميع السفن الاوروبية التي تجوب عرض سواحل المغرب من أجل أسر بحاراتها وجعلهم عبيدا. إن هذه الحكاية يتمّ تداولها انطلاقا من وجهة نظر مواطنين بسطاء استطاعوا أسر بحارة سفينة صغيرة. لست أدري بالضبط الى أيّ حقبة يعود ذلك. أظن أن الامر يرجع الى القرن ١٦ عشر. لقد أسروا آلاف الرجال ونقلوهم الى مكناس كيما يشتغلوا في السراديب داخل باطن الارض لحفر الزنازن الضيقة والمغاور للقصر.

إنهم كانوا جسورين ومتهورين أيضا في تلك الفترة. وهم مستعدون تكرار ما حدث اذا ما كان ممكنا ذلك. لكن الامر أصبح مستحيلا في أيامنا هذه. إنهم يتحدثون بشكل جدي عن استرجاع الاندلس من اسبانيا. قد يفعلو ن ذلك؛ فهم يكرهون اسبانيا وجميع الدول الاجنبية. إنهم شديدو البغض للأجنبي. وفي اعتقادي أنه من الممكن ان يحاولوا دون نجاح اجتياح جنوب اسبانيا. وقد فعلوا ذلك على عهد فرانكو الذي تمكن من أسر حوالي ٥٥٠٠٠ مغربي استغلهم بعد ذلك كرأس حربة لجيشه. ولقد تمكنوا من تحقيق الكثير من الانتصارات، لكن ياللقدر! لقد راحوا يهاجمون فلاحين في قرى صغيرة. إنهم كانوا واثقين من النصر؛ اذ شجعهم فرانكو على إباحة كل ما يريدون: بدءا من إحراق القرى، ونهبها واغتصاب النساء. لقد كانت لهم مطلق الحرية في فعل ما يشاءون. وفعلا نفّذوا ذلك بمنتهى السرور حيث قتلوا رجال الدين، والراهبات، وأحرقوا الكنائس، والقرى، وخربوا كل ما اعترضهم في طريقهم، لانهم كانوا يحبون ذلك.»

في قصة «بعد منتصف النهار» تقول السيدة كالندر Callender للسيد فان سيكلن Van Siclen بصوت متعب عن ابنتها: «لو أنك تعرف أخطار تربية فتاة في هذا المكان مع هؤلاء المغاربة حولنا، وناس جدد غير معروفين يصلون الى البنسيون كل يوم. إننا، طبعا، نحاول الحصول على مغاربة طيبين، لكن أنت تعرف كيف هم: إنهم ليسوا أهلا للثقة على الاطلاق، كلهم مجانين مثل الماعز. لا أحد يعرف ماذا يدور في عقل أيّ واحد منهم في أية لحظة. نشكر الله على أننا نستطيع

أن نسمح لانفسنا بارسال شارلوط الى الكوليج في انجلترا. »

ان المغاربة، في نظرها، همج، لكن شمسهم وطبيعتهم الخلابة تجد فيها منتهى سعادتها. لكن السيدة لايل Lyle، في «السماء الواقية» The Sheltering Sky هي أفظع وأكثر غباء من السيدة كالندر عندما تخاطب بورط: «يقولون إن هنا في الجبال من المستحسن حمل سلاح. وإنْ ينبغي لي القول أنني ما رأيت أبدا عربيا يعرف استعماله. إن الذين يجب الاحتراس منهم هم الفرنسيون الوحشيون. » وبينما كان خدم الفندق يحيون بورط والسيدة لايل Lyle وابنها Eric والسيارة تقلع بهم: « Bon voyage. »

قالت السيدة لايل وهي تتلاءم في جلستها: «لقد لاحظت أن عددا من الأشخاص يركّزون نظرهم فيَّ وأنا خارجة. (ثم تقول:) إنهم جنس منحطّ و مضجر، لا يفعلون شيئا آخر في الحياة سوى التجسس على الناس. كيف تعتقد أنهم يعيشون!» ولا يقل عنها خبثا حينما يقول تانر Tunner لبورط Port عن هؤلاء الخدم: طيب، سننادي على أحد هؤلاء القرود Macacos لكي يبدل الغرفة (تبديل غرفته مع كيط حتى تكون غرفتها مجاورة لبورط) .

إن السيدة لايل تسبّ الجميع بادئة بابنها إيريك Eric البهلول الذي يقول عنها لبورط: «إنها لن تعرف ما تفعله إذا أخذناها الى بلد متحضر. » ثم تقول هي لبهلولها: «لقد اكتشفتُ المسجد الأكثر وقاية، لكنه مليء "بالمُخاطيين" الزاعقين مثل شياطين. إنهم حيوانات قذرة. » إنّ بوولز بارع في وصف النفاية البشرية ماديا ومعنويا

دون أن يورط مشاعره حيالها.

بول بوولز أيضا يحب المكان أكثر من الانسان؛ فهو لايحب نفسه إلاّ في مكان بالذات. إنه يكتب من طنجة الى وليام تارج William Targ: «إن الأماكن كانت دائما أكثر أهمية لي من الناس. يعني أن الناس يعطون سُلّم المنظر، المنظر ليس ستار خلفية لهم. أحلامي ليس من عادتها أن تكون حول الناس، تكاد دائما أن تكون حول الأماكن، اتجاهات، أوضاع نسبية للأشياء المحيطة بي. المخلوقات البشرية التي تظهر فيها يخلو منها الوجه، إنها مجهولة. أقبل هذا مثل شرط أساسي للوجود. » لكن بوولز يعتبر نفسه دائما منفيا أينما حلّ. ويكاد ينفي حتى مولده في نيويورك؛ فهو له كل أرض ولا أرض له. أما جين فتهتم بالحوار أينما كان. لايهمها المكان إلاّ قليلا كما تعترف في إحدى رسائلها. « الحياة هى إحراق أسئلة La vie est des bruler des questions» كما يقول أنطونان أرطو.

«إنهم عصابة من الكسالى المعوزين، المحبين للراحة، يقضون كل الوقت مدخنين الكيف في سباسيهم، (المفرد: سبسي) ومتطفلين على الاكل. إنهم مخنثون، باطلون. » هذا مايقوله عن المغاربة سير نيجيل Sir Nigel البريطاني القميء، الضئيل والكريه، ذو العينين الشمبانزيتين المتقاربتين، والوجه المعشش بالتجاعيد. إنه يمارس ساديته بجنون على خمس مراهقات مغربيات يأتين اليه من قرى مجاورة لطنجة، ترأسهن وتروضهن فتاة سادسة سوداء تكبرهن. يسوطهن سير نيجيل بسوطه بينما هن يتخامشن بالاظافر ويتجاذبن

الشعر والثياب الى حدّ الايلام. وعندما يبلغ المشهد الأنين توقفهن مروضتهن باشارة من يدها فتنسحب كل واحدة الى حجرتها. هذا المشهد الذي يصفه بول بوولز بمهارته المعروفة في قصة «عشاء في منزل سير نيجيل» كان يشاهده جماعة من صحافيين انجليز وكنديين. ويؤكد أحدهم الذي يعرف سير نيجيل أن الصبايا يأتين اليه عن طواعية ويقدمن هذا العرض سعيا للأكل الجيد مدة شهر محبوسات وتكافأ كل واحدة بقفطان باهظ الثمن قبل أن تغادر. وفي رأي سير نيجيل أيضا أن طباخه وسيد مفاتيحه والمشرف على بستانه — الذي جلبه معه من الزنزيبر — يقوم بالعمل الذي يحتاج الى ستة من المغاربة للقيـام به. إن خيال ألف ليلة وليلة هو الذي طعّم هذه الطُباخَة على طريقة ساد Sade. على أن بوولز ينفي أن يكون هناك تأثير ما من ساد على كتاباته، لأنه لم يقرأ كتبه وإن حاول عام ٥٠ أن يقرأ «مائة وعشرين يوما من سدوم» حيث وجد الكتاب غير لائق للقراءة كما كتب لجون مارتين في بلاك سبارو بريس (١٢ — ٦ — ٧٨) بصـدد مقدمة كتبها غور فيدال لمجموعة بوولز القصصية يلمح فيها الى هـذا «التـأثير.»

يقول بول بوولز عن الحكواتيين: «ان الناس الذين حكوا لي حكاياتهم فقد فعلوا ذلك بلذة ليس إلاّ. كان شيئا مألوفا. الناس كانوا يحبون حكي الروايات والاستماع اليها، وذلك منذ زمن ليس ببعيد: خمسون عاما أو أقلّ. مع حلول التلفزيون، لم يعد أحد يفكر في ذلك. فالتلفزة قتلت، تقريبا، كل شيء. لقد قضت على الموسيقى والادب الشفوي. . . وماذا أكثر؟ طبعا هناك أشياء أخرى. إنه بسبب الاسلوب

الذي أنشئت به التلفزات التجارية التي تقتل الثقافات لا غير. إننا عاجزون عـن فعل أيّ شيء.» (من فيلم عملاق طنجة: بول بوولز – الاسطورة)

عاش بول بوولز متمنيا لو أن الاشياء ظلـت ثابتة كمـا أسعدته في زمن ما، وأن التغيرات الجغرافية، والتواريخ والثقافات الجديدة قد أفسدت عليه متعة العيش أينما ارتحل. وربما فضّل البقاء في طنجة لان فضاءها يكاد يخلو من مفهوم الزمن (الذي لاقيمة له كثروة للبشر) ، والحركة بالمقارنة مع الغرب عندما جاءها أول مرة. إذ «ماذا يعني أسبوع بالنسبة لهم؟ ليس لديهم أيّ مفهوم عن الزمن» كما يقول بورط لكيط في السماء الواقية. إنه نوع من الاستشفاء من التلوث والوقت الذي يجعل الناس مسكونين بالسرعة... لكنه عبثا يحاول إعادة الاعتبار لماضيه الذي يتشبث به بيأس. لقد أفلت منه الى الأبد، ولم يعد لديه إلاّ رثاؤه بشكل مَرَضيّ وأسيان.

في رسالة الى شارل هنري فورد (١٩٤٧ ٢.١٩) يوضح بوولز مفهومه للمكان: «كما تعرف تماما جيدا، لم أحسّ أبدا أني منحاز الى أيّ مكان حيث كنت، وأبدا لا أنتظره. لكن، بطبيعة الحال، بقدر ما يكون أقلّ الناس في مكان ما وبقدر ما يقلّ حدوث الأشياء بقدرما أكون أقلّ وعيا لتفويتي ما يحدث أمام عينيّ. وهذا هو سبب إعجابي بالأماكن الصعبة... وفعلا، إذا لم يكن هناك إطلاقا أحد، فيمكن لي القول أن سبب انزعاجي هو أن المكان هكذا، حيث لا أستطيع العيش

فيه، وإذن فليس غريبا أن أكون أيضا غير قادرعلى بقائي. وبكلمات أخرى، هي مسألة العثور على أوضاع غير مريحة وتحمّلِها مادام ممكنا ذلك قبل فراري، حينئذ يمكن وصف رغبة كما لو أنها تماما طبيعية».

وسنعرف أيضا أن بول بوولز رادَ وأسس، من خلال كتاباته، ورحلاته، وحياته المتميزة، عالم الهيبيين (دون أن يقصد ذلك) نافيا مطلقا أن يكون كاتبا منتسبا الى البتنكس مؤكدا على أنه مخطىء من يعتبره منهم. مع ذلك فقد استقبلهم أفواجا، وحاورهم طويلا رغم أنهم كانوا يأخذون الكثير من وقته. لقد كان أباهم الروحي متفهما تمردهم على عائلاتهم، ومجتمعاتهم (كما فعل هو مع أسرته وبلده)، متسامحا معهم حتى في حماقاتهم وتفاهتهم الى حدّ أن يتركوا حقائبهم عند مدخل شقته الصغيرة قائلين بانشراح: هيه، ها نحن جئنا لنراك!... ومع الوقت تعب منهم ولم يعد يستطيع استقبالهم. وقد كلّف المرابط القادر دائما على القيام بهذه المهمة.

كانت المدرسة الاميريكية تستقدم كل صيف فوجا من الطلبة الذين يحاولون الكتابة الادبية فيصحح لهم بول بوولز نصوصهم. لكن لا أحد منهم كان موهوبا. لقد خاب أمله فيهم. ما عدا واحد. ومن هو هذا الواحد؟ لقد كانوا يبحثون عن الثراء من خلال الكتابة. لكنهم لم يكونوا يعرفون جيدا حتى القواعد النحوية.

ظل بوولز سنوات يمارس معهم هذه المهمة حتى أعجزه المرض (أجريت له عمليتان حتى الآن على عِرق النّسا La Ciática)

وأتعبته شيخوخته الكئيبة. لكن يبقى بوولز، في كتاباته، أقلّ صوفية، وعمقا، من هرمان هيس الذي كان له أيضا تأثير كبير على الهيبيين؛ (خاصة من خلال عمليه: «ذئب البراري» في جانبه التشاؤمي، و«سيدهارتا» في جانبه التفاؤلي) لأنه كان أقلّ انبهارا بالغرائبي، والافتتاني. وكذلك لم يكن في حاجة الى تناول «المعجون» مثل بول بوولز ليستوحي المخيلة المشتهاة كيما يصف ضياع وموت بطله بورط في السماء الواقية، The Sheltering Sky وديار نيلسن (بطل دعه يسقط) يدقّ مسمارا بكل قواه في أذن صديقه التهامي ليتخلص منه خوفا من أن يستولي له على ماله.

وسيكتب نورمان ميللر فيما بعد: «الجريمة، المخدرات، السفّاح، موت الانسان الشريف، الاحتفال بالمآدب والمباهج، إنها نهاية الحضارة... !»

لكن السؤال الذي أطرحه على بول بوولز هو هل انتصر وحقق حلم المبدعين الاميركيين الحُجّاج الى العواصم الثقافية: باريس، برلين، روما وطنجة، في زمن مجيئه اليها؟ ثم أهو حقق، أيضا، حلمه معزولا عن أحلام الآخرين الذين سبقهم الى مغامرة السفر عندما يقول: «مثل أيّ رومانسي، كنت دائما مقتنعا، في غموض، أنه ذات يوم سأجدني في مكان ساحر يكشف لي عن أسراره، ويهب لي الحكمة والنشوة، وربما الموت!؟»

إنني، هنا، أتذكر مليكة، بطلة قصته «هنا نتعلم To Learn Here» التي أراد أن يخلق منها تيم Tim (بيجماليون) غالاتيا Galatea.

ان مليكة تخلصت من البؤس المادي بعدما مات زوجها وورثت عنه، لكن تحديها الاكبر يبقى في كيفية تجاوزها بؤسها الروحي، لانها لم ترث من أسرتها سوى بؤس الغيبيات.

سأل شاكر نوري بول بوولز:

– هل تخاف الموت؟

– لا. إنني لا أخاف الموت. طبعا لا أريد أن أموت، لكن مع ذلك فإنني أخشى هذه اللحظة القدرية. كلنا سنموت. وهذه حقيقة انسانية ينبغي لنا أن نقبلها كما نقبل الحياة: فالموت هو جزء من الحياة. ورغم ذلك فأيٌّ شيء لن يكون حقيقة واقعية.

إنّ نزوع الهروب، القهري، ولد مع بوولز. نحن نعرف أيضا أن وجوده لم يكن مرغوبا فيه: فأبوه أراد أن يتخلص منه، وهو في الاسبوع السادس من عمره، عندما وضعه على حافة الشرفة، في أحد أيام نوفمبر الثلجي. وهناك رواية أخرى تقول إن جدته من أمه فينفيسر Winewisser هي التي كانت تريد موته غيرة منها لكي تستأثر بابنتها (أمه) وحدها، أو أنها لم تكن ترغب في أن يكون لابنتها أطفال. لكن عدوه الاكبر هو أبوه الذي حارب حتى ذكاءه باكرا: «غيورا من موهبتي الهائلة أمربأن يُخْرَج البيانو من الدار.» هكذا يقول عنه في رسالة الى صديقه موريسيت عام ٣٢ من إيطاليا.

عاش بول بوولز طفولته وسط عالم الكبار، وليس حضن الكبار، لانه لم يتمتع بأيّ دفء في أسرته: إذ حياته قُنّنت، وروقبت، وعوقبت الى

حدّ الارهاب والجنون، ولم يتسامح معه أبوه الاّ في ظروف نادرة. ومن بين التعذيبات التي كانت تُمارَسُ عليه أن أباه كان يفرض عليه، بنوع من الوسواس القهري، مضغ لقمة أربعين مرة قبل بلعها حفاظا على صحته، كما كان يعتقد. ويبدو جليا أن بوولز قد استوحى قصته «حقول صقيعية» من محيط عائلته؛ إذ هناك تشابه بينه وبين دونالد بطل القصة.

لم يرَ بول بوولز ويعاشر أول طفل حتى بلغ السابعة من عمره. وعندما دخل المدرسة لم يكن له فيها أيضا أصدقاء، لانه كان ينعزل عن رفاقه. و ستكون هذه العزلة مصدر تفوقه عليهم في دراسته. لهذا فقد كتب أول حكاية أشخاصها حيوانات. وكانت أمه تناغيه في الرابعة من عمره بحكايات فوق مستواه العقلي لتنيمه، وتقرأ له أيضا قصص إدغار آلان بو المرعبة ومازال حتى الآن كاتبه المفضل، وبعده اكتشف بنفسه باكرا لوتريامون، الذي لا يعتبر أكثر دموية من بوولز نفسه في كتاباته، فأعجب به، لكنه لم يعجبه فوكنر لأنه قرأ كتبه ولم يصدقها كما يقول لآلن هيّبرد Allen Hibbard في رسالة من طنجة (١٨.١.٨٣) ، ولم يتم ّقراءة «المهرّجون» Guignol's Band لسيلين Celine، أما جويس Joyce فهو يعترف لميليسنت ديلن Millicent Dillon في رسالته لها: «أغبطك إذا كنت قادرة على تحمل درجة من الاهتمام بانتظام في قراءة عوليس Ulysses. الناس لا يكفون عن التأكيد بأنهم قادرون. الناس أيضا يؤكدون أنه متبّصر وخادم. » أما رامبو فقد ظل معجبا به الى حدود الخامسة عشرة من عمره ثم حلّ اعجابه بمغامراته

محلّ شعره. وكذلك حيرته تقنية Francis Bacon وأريكه «الغداء العاري» لوليام برّوز.

إنّ صحة أمه كانت ضعيفة، ولذلك كان أبوه يردد عليه: «إنك سبب مرض أمك الدائم، لأنّ ولادتك كانت عسيرة!»

إنّ بول بوولز الآن، وقد قارب السادسة والثمانين، يتمنى لو أنه يكون طفلا، لكن ليس الطفل الذي كانه، دون شك: «أحبّ أن أكون مرة أخرى طفلا، لأنّ الهواء يفوح أفضل. الآن، وأنا في الواحد والثمانين من عمري (وقتما أُجري معه هذا الحوار)، هناك امكانية أقلّ للتمتع بالحياة. إنّ الطفل حرّ؛ فهو يخرج، يرى الشمس، والزهور، ويستطيع أن يتنفس بكامله. إن إنسانا، في مثل عمري، يخرج وهو شاعر بأنواع صغيرة مختلفة من الآلام. هذا ليس مهما. الطفل له إحساس بأنّ العالم رائع؛ فهو لا يخاف، لأنه بريء. ربما لانّ لي حنينا نحو تلك البراءة، وذلك لا يعني أن حياة الأطفال هي فردوس؛ الاطفال يعانون أكثر من الراشدين؛ الاطفال يعانون، يحسون ويتمتعون بشكل أفضل.»

بول بوولز يحب أن يشعر بالخوف، لكنه لا يعرف لماذا...! في اعتقاده أنّ «الخوف هوالذي يدير العالم، هو الانفعال الاقوى، الاكثر قوة من الحب، لأن الحب لا يحرك العالم،؟ إنه ينتج النوع: فهو ليس مهما مثل الخوف الذي يتصدّر. الخوف من أن نفارق الحياة لأنه معلوم أن كل واحد منا يريد الاستمرار في العيش. وكل ما هو خارج يهددك؛ لانه إذا أنت لم تكن خائفا فإنك لن تتنفس.» وطبعا فإن هذه الفكرة

تأثر بها من كتاب «تَدَهور الحضارة الغربية » لـ: أسوالد اشبنغلر الذي كان معجبا به.

في روايته «بيت العنكبوت» لا يُطرح السؤال: لماذا العيش، لكن كيف يمكن العيش؛ لان الدودة في الفاكهة، ومعلوم أنها رواية قَدَرية.

بول بوولز لم يستطع أن يجد حلاً للخوف من الموت كما وجده أبيقور: «مادمت أعيش فلا خوف من الموت، واذا مت فلن أحسّ بشيء.» لكن الحكمة التي يهبها لنا بوولز عن الخوف،الأهم من الحب، أليس فيها أيضا كَبْح لمواجهة الحياة؟ طبعا هناك شكل آخر للتخلص من الخوف هو الانتحار. إنّ البورجوازية، مثلا، بالنسبة لبوولز هي أنها: «تملك المال، الرفاهية، لكنها تشعر بنفس الخوف من الموت. لا شيء يحمي الانسان من الموت. لا شيء. هناك ناس يؤمنون بالخلود. إنه يبدو كما لو أنّ هؤلاء الناس أقلّ خوفا، لكن لماذا؟ ينبغي أن يكون لهم نفس الخوف، لأنّ لا أحد أثبت، ولا أحد سيُثبت، أن الخلود موجود.» [1] لكن بول فاته أن يذكر أن الخوف لا حدود له.

إنه يقول عن الموت: «أعتقد أنه ينبغي أن نموت كما عشنا. إذا كنا قد عشنا في كارثة فاننا سنموت في كارثة. هذا أفضل. مادام أنه سنموت يوما ما فلا يهم بأيّ شكل سيكون. أظن أن من يخافون من الموت فهم أولئك الذين يعتقدون أن هناك حياة بعد الموت. إنهم يجهلون ما سيحلّ بهم عند مماتهم. فإذا كنتم تؤمنون بإلاه ما الذي

سيحاسبكم على ما فعلتم في حياتكم، وكنتم على يقين من الحصول على رضاه فأنتم إذن قلقون، إنكم لَتخافون من الموت. لكن هذا ليس ضـروريا. » غير أنه الى أيّ حدّ يقبل بوولز فكرة إميل سيوران E. Cioran بأنه «عندما يموت المرء يصبح سيّد العالم. »

طنجة بين صوت وصوت

عندما زار مارك تواين طنجة (قادما من إسبانيا) العام ١٨٦٧ لـم يبق فيها أكثر من ٣٦ ساعـة. لقـد علق عليها في كتابه "الغريب البريء" Innocent Abroad : «طنجة هي المكان الذي كنا نرغب فيه من قديم... كنا نريد شيئا كاملا ومختلفا تماما. » ثم اعتبرها الثانية من بين أقدم مدن العالم. وجدها جنة يوم وصوله كما كتب لأصدقائه، لكن سرعة مغادرته لها بقيت مبهمة حتى اليوم. ومع ذلك فلم يخب ظنه فيها. أما بول بوولز فقد ظل هنا، رغم أنه قد يكون حدث له شيء ما مزعج أو لم يحدث. إنه «الكاتب الأمير المقيم بامتياز في المدينة» كما قال عنه جافن يونج Gavin Young. وصرّح آرون كوبلاند بعد أيام من إقامتهما (هو وبول) في طنجة: «إنها مستشفى المجاذيب، مستشفى المجاذيب» ؛ لأنّ توتر وضجيج أهلها في الكلام أزعجا راحته، وكذلك لم تكن أصوات الطبول والغيطة تكف ليل نهار. وعندما زار فاس، صحبة بول، وجدها أكثر إقلاقا من طنجة فأثبت نفوره من المغرب كله. أما بول فقد كان أقل حساسية من كوبلاند وأعجبته فاس أكثر من طنجة حيث كسب علاقات مع بعض الأسر البورجوازية وحمايتها

له وأصبح للإغتراب متعته. ترومان كبوتي جاء العام ٤٩ صحبة جين بوولز و كأنه طفل خائف تجرّه أخته الكبرى. كان عمره خمسة وعشرين عاما. أتى فقط لتمضية الصيف في طنجة دون أن يبدأ عملا في كتاب، أو يكمله، أو ينقحه كمعضمهم. وبعد عودته الى نيويورك كتب محذرا من يغادر طنجة من ثلاثة أشياء أساسية: «أن تلقح نفسك ضد التيفويد (وقد أصيب به بوولز)، وتسحب كامل رصيدك البنكي، وتودع أ صدقاءك لأن الله يعلم إن كنت ستراهم الى الابد. هذه النصيحة بالغة الجدية. . . » لقد هرب منها خوفا من أن يأسره سحرها الذي أخلد الآخرين فيها: أحسّ أن الزمن إذا لم يكن ثابتا فيها فهو يتحرك ببطء شديد ولم يترك (مثل بوولز) القدر يختار له مصيره فيها.

يقول عنه بوولز: «كان مكتزنا بما فيه الكفاية. له صوت غريب (صوت ماعزيّ)، وطريقة غريبة في الكلام. كثير الفكاهة، وكان يضحكنا. المشكلة الوحيدة هي أن لا أحد، هنا، كان يعرف من هو. كان ينتظر أن يقول عنه الجميع: انظر! إنه ترومان كابوتي. لكن لا أحد كان يقول ذلك. أخيرا. . . كان يرفض الذهاب الى المدينة القديمة أو القصبة (. . .) كان يخاف. «لا، لن أذهب الى هناك! » (نبول يعجبه كثيرا تقليد صوته) . هكذا كان يتكلم. صوته ماعزي. سألته لماذا لا تريد أن تذهب؟. أجابني: «من يعرف ما سيحدث لي!» ولم يكن يحدث أيّ شيء، لكنه كان يرفض الذهاب! »

«ترومان كابوتي ذهب الى هذه السهرة. كانت سهرة تنكرية.

الجميع كان متقنعا. لا أعرف بمـاذا كانوا متخفين. كانوا يحملون أكاليل من الزهور، ونوعا من. . . ملابس الرقص. وكانت هناك السيدة جرين Green، وما أن رأته حتى تساءلت: «لكن ماهو تنكرك؟» قال: «أنا روح الربيع!» قالت: «لا يبدو ذلك!» وهنا توقف حديثهما!»

ويجيء براين جيسن Brion Gysin عام ٥٠ (٧) ليفتتن بالحفلات الموسيقية الشعبية التي عرّفه بها بوولز، الذي أصبح الوصيّ الأكبر على من يفد الى طنجة (مدينة الحلم City Dream) من الاميركيين، وأحيانا وصيّا حتى على غيرهم، بعد أن ربض فيها مثل أبـي الهـول، فصار المُعَمِّد الشرعي، والمرجع لهم عن المغرب كله. براين جيسن أيضا وجـد طنجـة فردوسـا كما قال لبول، ويتمنـى أن يعيـش فيها حياته كلها، ولـكي يشـدّ نفسه اليها افتتح مطعم ألف ليلـة وليلـة فـي جـزء مـن قصر آل المنبهي فـي مَرشـان (أجمـل الاحياء القديمة خارج أسوار المدينة)، تبنـيّ جـوق «جهجوكـة» في طنجة، وأشهر موسيقاهم في أوروبا، والولايـات المتحدة، وجلـب فرقة Rolling Stonns الى طنجـة لـكي تستمع الـى موسيقاهم وتَعَلّـم الـدارجة المغربية. كان يتكلمـها أحسـن مـن بـوولز لأنـه أكثـر منـه معاشـرة للمغاربة وأحبَّهـم وصادقَهم(٨). وقد قال يوما لبول: "إذا قُدّر لي أن أصير مسلما فسيكون بسبب هذه الموسيقى الشعبية المغربية."

كتب براين جيسن روايته الوحيدة The Process (الصحراء المفترسة) في ترجمتها الفرنسية، لكنها لم تلق رواجا. لقد ظل في طنجة خمسة وعشرين عاما حتى أرغمته العناية الطبية اليومية بمرضه

المزمن، الخبيث، على العيش في باريس حتى مماته عام ٨٦. لم يتخلَّ عن العودة الى طنجة لزيارة أصدقائه ومعارفه. إن وصيته لم تنكر حبه لطنجة ومراكش: فقد حملت معها أخته الروحية آن كومينج فيليسيتي Anne Cuming Felicity من باريس رماده في قارورات صغيرة ونثرناه بين صخور مغاور هرقل، ونُثِر أيضا جزء من رماده في «جامع الفنا» ، الذي أحبه كثيرا. رماد هنا، رماد هناك، يا للرماد!

لعل براين جيسن هو الأصيل الوحيد الذي لم أسمعه أبدا يتذمر من حياته بين المغاربة في طنجة و غيرها من المدن المغربية. وقد قال لدانييل روندو Daniel Rondeau في باريس، بعد أن غادر الإقامة في طنجة نهائيا: «إن طنجة، خلا هذه السنين، كانت فردوسا. لن نرى أبدا هذا على الأرض.»

سجّل بول بوولز كثيرا من أنواع الموسيقى المغربية الشعبية والأندلسية. يقول عن الصعوبات التي اعترضته: «كنت في حاجة الى مساعدَة من الحكومة المغربية؛ فعندما أحُلّ في إحدى المدن أتصل بالقائد. أكشف له عن هُوَيَّتي وأطلب منه أن يجمع لي موسيقيين. أحيانا، كان القُواد يرفضون. كانوا يقولون: «كلاّ، كلاّ، نحن لا نريد أن يتمّ تصدير الموسيقى المغربية. لا نريد أن يستمع الأجانب الى مانفعله». بعضهم كان حقيقة غير مهذب، لكن أكثريتهم كانوا لطفاء، مستعدين أن يعينوني. كان ينبغي الحصول على دعم الحكومة من أجل جلب الموسيقيين، لأنه، أحيانا، كان يجب إرسال شاحنة للبحث عنهم على بعد مائة كيلومتر، في الجبال،

واستقدامهم حيث أستطيع التسجيل معهم. إنه يحدث أن يكونوا في عين المكان، في القرية، لكن، في معظم الأحيان، كان لابدّ من الذهاب بحثا عنهم حيث يوجدون. »

في بداية الستينات بدأت أسمع وأقرأ عن أسماء الكتاب والفنانين الأجانب الذين زاروا طنجة في الماضي والذين يزورونها على فترات أو الذين رحلوا عنها ولم يعودوا اليها حتىّ ماتوا مثل ترومان كابوتي، وجاك كرواك، و ألفريد تشستر الذي آثر الانتحار في إسرائيل بعدما طُرِدَ من طنجة و أصيلة بسبب مشاغباته مع السلطة المحلية وتصرفاته المجنونة أينما حلّ. من بينها أنه أراد أن يجعل من سطح منزل قديم، اكتراه في أصيلة، مسبحا. وجنّد لهذه المهمة أطفال الحيّ لكي يساعدوه في انجاز مشروعه حيث كانوا ينقلون له الماء في أسطال. وأذكر هنا أن بوولز كان يستعيد هذه الحماقة بانتشاء وهو يضحك.

كنت أرى، من بعيد، بوولز الرائد وجماعته، لكني لم أكن قد تعرفت بعد الى أحدهم شخصيا أو قرأت له. كانوا كتابا ولم أكن أنا قد نشرت بعد قصتي الأولى. كنت غارقا في قراءاتي الكلاسيكية والرومانطيقية العربية والاجنبية. لم أكن قد زرعت بذرتي الاولى في حقل الادب، وماكان عندي ميل لإغواء مِثليتهم الجنسية. سأعرف، فيما بعد، أن بول بوولز هو أكثرهم كتمانا للوطيته مثل جاك .كرواك. لكن كرواك قد يستعري إذا هو سكر؛ فقد نهض ذات مرة في خمارة صارخا: إني تناكحتُ مع غور فيدال. Gore Vidal «كان اللواط يعتبر، بين الأدباء والفنانين، نوعا من الرياضة القومية في الأربعينات

والخمسينات خاصة في العالم النيويوركي» . كان شيئا حميما لتعزيز الصداقة: فقد عاد آلن جنسبرغ وبيتر أورلوفسكي Orlovsky Peter كرواك وهو مريض. ولكي يبرهنا على صداقتهما له ناكاه. وعندما احتجّ كرواك على أنه ليس لوطيا وما كان ينبغي لهما أن يفعلا له ذلك أجاباه بلطف بالغ: «إننا فقط أردنا أن نسعدك يا عزيزنا جاك!» وعلق أورلوفسكي آسفا على أن جاك كان سكرانا الى حدّ أنه لم يُنعِظ.

بعد أن صدرت روايته "على الطريق" On The Road «اعتُبِرَ كرواك بمثابة مارلون براندو في الأدب.» فقد صار «الرجال يتمنون معرفته شخصيا، والنساء يردن النكاح معه بالقوة.» فإيٌّ شيء يمكن له أن يكتبه سينشر ويباع جيدا، لكنه دفع الثمن غاليا: فقد قتله الاحتفاء بشهرته. وكان كرواك يتباهى بشهرته أمام أيّ شخص معززا من طرف الشبان الذين يترددون على الحانات ليشربوا نخب معبودهم. إنه تلميحيّ واستعراضيّ من أجل الدعاية لمشواره الأدبي. «كان جاك كرواك "قطيعيا" Grégaire، جَماعيا. يحب أن يخرج لكي يشرب ويتكلم. كان بالغ الجماعية. يحب أن يكون محاطا بالناس. كان دائما مع الناس. مستعد أن ينهق لكل من يصغي له على أنه كاتب مشهور. كان يصيح: أنا جاك كرواك!» هكذا قال عنه بروّز Burroughs.

يعترف وليام بُروّز أنه جاء قادما من سان فرانسيسكو عام ٢ ٥ [٩] الى طنجة لزيارة بوولز مؤلف: «دعه يسقط» [١٠] Let it Come Down، (بول نفى هذا الزعم في أحد استجواباته) ومرة أخرى من أجل

الغلمان، خاصة الاسبان، والحشيش والمعجون. يقول في الغداء العاري: «الرفقاء الاسبان عَمَّدوني بالرجل الخفيّ Hombre Invisible El».

إنك قد تراه في السوق الداخل جالسا في مقهى أو واقفا مستندا الى حائط أو متمشيا، وبعد لحظات قد تراه أو يراه غيرك واقفا أو متسكعا في شوارع المدينة الجديدة. هيئته دائما صارمة. إنه يوحي لمن يراه، في هذا الوضع، كأنه يتجسس على شيء ما: ياقة معطفه دوما مرفوعة، قبعته مُحدَودَبة قليلا على جبهته، نظراته ثابتة، إحدى يديه قابض بها على طرفي فتحة معطفه في الصدر والاخرى في جيبه أو هما معا في جيبي معطفه. إنها الفترة التي كان يتناول فيها شتّى المخدرات بشكل دائم: حقنا وابتلاعا وتدخينا. وكان بول بوولز وبراين جيسن يلازمان زيارته في فندق المونيريا شنيعضظغت حينما كان يكتب الغداء العاري. كانا يجمعان الأوراق المبعثرة على الأرض ويرتبانها. وعندما زارطنجة آلن غينسبرغ و جاك كرواك ساعدا برُّوز على ترتيب ما كان قد أنجزه من الغداء العاري. كان كرواك يضرب المسودّات (حسب ماقيل)[11] على الماكنة وبيتر أورلوفسكي Peter Orlovsky ينتشي بتدخين الكيف وإعداد الطعام مع برّوز.

وليام برّوز في طنجة

عندما وصل برّوز الى طنجة واجه المجتمع الطنجي بعداء: مغاربة وأجانب؛ المغاربة يراهم منحطين فكريا ومشعوذين، والأجانب كانوا

متباهين بوضعهم المادي الذي يسمح لهم أن يكونوا في أحسن المطاعم والحانات. لقد تحاشاه المقيمون فيها مثل بول بوولز والمترددون عليها مثل تينسي وليامز. كا برّوز يعيش منعزلاً. لم يكن يثق في أحد الى حدّ أنه كان يخرج الى الشارع وفي جيبه سكين أو مسدسه الذي يلمّعه باستمرار. لقد بالغ في خلق نوع من البارانويا يحمي بها نفسه كي يسكّن قلق عزلته. وفي دينز-بار Dean's Bar كان صاحبه Dean يعتبر مجيئ برّوز طالع شؤم. لم يكن يلبّي طلبه، على مضض للشراب، إلاّ إذا كان مصحوبا بزبون جيّد مثل Kells Elvis صديق برّوز في الدراسة الذي شجعه علي الكتابة في بداية الثلاثينات.

آفة برّوز في التفاهم مع المغاربة ومحاولة العيش معهم هي أنه رفس أعرافهم وتقاليدهم ولو مجاملة كما فعل بوولز الذي استطاع أن يتأقلم معهم بدهاء. أما برّوز، الذي اعتبر نفسه ساميا على هذا التواضع، فقد كتب الى براين غيسن Brion Gysin في باريس بتشنج: « ينبغي لي المغادرة قبل إطلاق مسدسات اللازر على أهلها (طنجة) المُبَلَّدين (من البلادة). لقد كان يعيش مثل كوبوي من الويسترن دخل الي مدينة لا يعرفه فيها أحد. لكنه عندما اكتشف أحد أسرار العيش في طنجة صار منها وصارت منه وكتب: «لا أفهم كيف يمكن لأحد ما يستطيع أن يكون أكثرسعادة مما أنا هو الآن... أطلب من الله أن لا يُقَدّر مغادرتي طنجة... طنجة هي مدينتي المحلومة. منذ عشر سنوات حلمت بالوصول الي ميناء وأدرك أنه هو المكان الذي كنت أودّ أن أكون فيه... منذ أيام بالضبط، مجذفا في الجَوْن Bahía، تعرفت عليها

كما لو أنها حلمي «Como la bahĩa de mi sueno» .

إن حلم برّوز هذا يشبه حلم بوولز بمكان (طنجة) سوف يعطيه الحكمة وربما الموت وهو في نيويورك. غير أن ما أبقى برّوز في طنجة ليس هدفا أنتروبولوجيا مثل مثل بوولز و إنما فقط وجد ملاذا يحميه ممارسا إدمانه على المخدرات بهوس كما يكتب في رسالته الى آلن غينسبرغ (١٨ . ٨ . ٥٤ .) : «لقد توصلت الى التفكير في بوليس طنجة كنموذج لما ينبغي للبوليس أن يكون عليه ويفعله. إنهم لا يشغلون أنفسهم بشيء عن حياتنا الجنسية أو تعاطينا المخدرات (طبعا، الكل يدخن الشاي "الكيف" في الشارع كما هو التبغ) . كل ما يعملونه هو الحفاظ علي النظام (يقومون به كفاية). لم أر عراكات، وحينما تحدث مشاجرة فإنّ البوليس يكون هناك في ظرف ثوان. مع ذلك فلم يستطيعوا منع جريمة حديثة العهد في الشارع الرئيسي، لكن لم يكن هناك تبليغ. كان عربي[١٢] يمشي مع عربي آخر وصوّب طعنة لامرأة في المعدة، أما عن تحاشي السرقة (فأيضا ليس هناك كثير منها) . وفي حالة نزاع بين عربي وأميركي فهذا الأخير يكون له دائما الحقّ، تلقائيا. هذا يعجبني ولا أسيء استعماله: فأذا أنا ضربت أحدا فيمكن لك أن تكون علي يقين من أنه يستحقه؛ لأنه عادة أنا ذو طبع طيب وصبور إزاء الأخطاء. إنه لَمُفْرِح أن تعلم أن البوليس سيساندونك إذا ما وقعت مشكلة. في الوقت الراهن لم تحدث لي إحداها. لقد حاول عربي سرقتي، لكن دفعا قويا قضى على المحاولة. إن المحاكم لاتكلف نفسها حتى بالتظاهر أنها غير منحازة. إن عربيا ينال دائما عقوبة أشدّ من

أوروبي في نفس مستوى الجريمة. رغم ذلك، فكل الأحكام هي نسبيا منخفضة: حوالي خمسة أعوام كحدّ أقصى.»

هذا هو المغرب الذي يفتقده اليوم برّوز وبوولز ومجايليهما الذين عاشوا في طنجة. لم يجد برّوز راحته، في بداية مجيئه الى طنجة، إلاّ صحبة المغاربة ماسحي الأحذية الذين يدخن معهم الكيف في المقاهي الشعبية. ولم يكن يفهم شيئا مما يثرثرون فيه. كان يجمعهم الكيف والشاي المنعنع. لم يكن عنده أيّ حسّ حضاري ليفهم تقاليدهم، ولذلك كتب الى آلن غينسبرغ: «ماذا يعني هذا الخراء من الثقافة الإسلامية؟» نشوته الكاملة لم تكتمل إلاّ ملتصقا بجسد عشيقه كيكي Kiki. كانا يمارسان الجنس مدخنين الكيف. وقد وصل هذا العناق «الأيروسي» في إحدى المرات الى ست عشرة ساعة. وهكذا يعترف برّوز أنه في الوقت الذي كان المجتمع الطنجي يجيعه فلم يكن يبخل عليه كيكي بجسده مقابل أقل من دولارين في اليوم: النصف له والنصف لأمه المريضة التي كانت مطلعة على علاقتهما الحميمة. لم يكن يقلق برّوز في نعيم جنته إلاّ قلة موارده المادية من والديه التي يصرف معظمها في شراء المخدرات. كانت أعراض الإدمان التي تبدو عليه جدّ مقلقة الى حد أنه كتب: «ليلة البارحة استيقظت على من كان يضغط على يدي. كانت يدي الأخرى.» وعندما تتأخر يتكلف كيكي العزيز ببيع أو رهن ملابس برّوز أو آلة التصوير أو ماكنة الكتابة..

في سنة ٦٥ كان برّوز في طنجة. وفي ٣٠ ديسمبر ٦٥ مات جي

هازوولد Jay Haselwood بسكتة قلبية. لقد حضر برّوز جنازته. كان مشهدا حزينا جدا في مقبرة سانت أندريوس. St. Andrews لقد اعتبر برّوز موت هازلوود رمزا لنهاية فترة كان شعارها: عش ودع غيرك يعش. لقد كان العيش في طنجة يصل الى حدّ الخروج على القانون. كان برّوز قد استهلكها بما فيه الكفاية. وأصبحت زياراته إليها، بين فترة وأخرى، مجرد حنين عابر، تحية، جولة في حديقة منسية. لم تعد توحي له بشيء هي التي كانت أساسا ضروريا لمشواره الأدبي.

لم يرد قط بُرّوز أن يتجذر في طنجة مثل الآخرين: ديفد هربت (ابن كونت انجليزي) ، مرغريت مِكباي M .Macbey (رسامة) ، كلود توما (مترجمة بوولز ومحمد المرابط) ، وكلاوديو برافو Claudio Bravo (رسام شيلي) . ربما هؤلاء أحبوا طنجة أكثر من برّوز.

اشترى إدوار روديتي منزلا في القصبة ذا حديقة متواضعة تتوسطها شجرة تين ضخمة وبئر وكرمة. يأتي اليه كلما أجهده عمله مُترجِما فوريا دوليا في المؤتمرات. إنها أكثر المهن إنهاكا للأعصاب، كما يقول. يتقن الانجليزية، الفرنسية، الاسبانية، الالمانية، التركية، وملم بالايطالية والبرتغالية. أشعاره، قصصه ومقالاته الادبية يكتبها بالانجليزية والفرنسية. ترجم من التركية بعض قصائد يونس عمري. يعرف جيدا أهم العواصم العربية. وفي كل عاصمة له فيها مغامـرة جنسية: «كادوا أن يغتصبوني، لكني نجوت منهم بأعجوبة. . . !» ثم يضحك باقتضاب. عندما يبالغ في حكي احدى مغامراته أشك في وقوعها، لكن ماذا أقول له حين أراه يبالغ في تصديق نفسه؟ إنها

نشوته. هناك دائما أكثر من واحد يتبعه محاولا اغتصابه ولكنه يعرف كيف ينفلت منه. إن شطحات خياله الجنسية الرائقة لا تنتهي. يسلي بها نفسه ومن يتعجب معه لغرابتها وطـرافتها. يفخر دوما أنه يعرف شخصيا ابنيّ أحمد شوقي وأحفاده. له أيضا ذكريات مفرحة ومحزنة في باريس مع المصرية المغتربة نِعْمَتْ عِلْوي بك أيام كان يحبها ويتراسل معها رينه ماريّا ريلكه R. M. Rilke. كذلك يحكي روديتي أنه استيقظ ذات صباح في أحد فنادق باريس نائما مع لوركا في فراش واحد دون أن يتذكر كيف حدث ذلك في ليلة سكر وعربدة.

في طنجة، يمكن لأيّ بارع في الحكي أن يخترع أية حكاية فَيُصَدَّق أوعليه هو أن يُصَدِّق حاكيَها حتىّ تتمّ متعة العيش في سحر أسطورتها المتلونة وتدوم. لقد انطبع، في ذهن عشاق هذه المدينة، قديما وحديثا، أن الملل مطرود من مملكتها المسحورة، الشبيهة بألف ليلة وليلة، وأن جلال أسطورتها، من عهد أنتيوس Anteaus الى آخرالغزاة، يحمي ويغذي كل خرافة تُحاك فيها وعنها. إنّ أسطورتها التحوّليّة تُجَمِّل كل أكذوبة تُلَفَّقُ عنها. إنه من الحمق أن يجرؤ من يقول الحقيقة فيها أوعنها. كل آتٍ اليها يريد أن يكون شهريارها وهي شهرزاده. لكنها هي الواعدة بالقهر والطرد وربما بالقتل لمن يخونها ولايعرف سرّها – اللغز. لا تُسامح من يخطىء معها. وبين الأمس واليوم، وماكان ومالم يكن، فهناك دائما المغامرون الحالمون بها.

في "السماء الواقية"، يقرر بوولز، بلغة صحافية، على لسان المستر ريتشارد هولاند موجها كلامه الى ديار نلس: "في نيويورك هناك رجال

الأموال المحتالون، هنا (طنجة) الصرّافون. نيويورك لها نصّابون، طنجة المهربون. كل الدول هي مجتمعة وليس هناك كبرياء مدني Cívico (وطني أو قومي). والجميع مستعدون أن يمتصوا دم الغير. إنها حقا ليست مقارنة متينة. أليس كذلك؟ "

مساء، رافقت أدوار روديتي[١٢] لزيارة بول بوولز. كلاهما يحب من ينتج فنا ويشجعانه على المضيّ فيه مهما كانت قيمته. صداقتهما جدّ قديمة. إنهما في نفس السنّ تقريبا، لكن بوولز يبدو أكثر حيوية في حركاته و انعكاساته. شيء بارز يلازم بوولز هو ضعف سمعه: إنه غالبا ما يكوّر يده اليمنى حول أذنه أمام محدثه ليقول له بالاسباني: «Qué!» ماذا!

أتساءل: أهو تمثيل؟

٢٦. ٤. ١٩٩٤

أخبرني اليوم روبيرتو دي هولاندا Roberto de Hollanda أن بوولز لم يعد حقا يسمع من أذنه اليمنى بعد العمليتين اللتين أجريتا له على وجهه في باريس وأتلانتا لإزالة ورم سرطاني.

إنّ بوولز، مثل معظم الذين أزمنوا في طنجة، يفضل الحديث بالاسبانية إلاّ مع مواطنيه.

قدمني اليه روديتي بصوته اللطيف:

– إنه كاتب مغربي ريفي. قصصه، التي حكى لي مضمونها، جيدة.

أرجو أن تروقك فتترجم له بعضعها.

تطلّع اليّ بول بنظرته الهادئة، الاستكشافية والمبهمة ثم قال خافضا نظرته المتأملة كعادته:

- ولماذا لا!

في هذه اللحظة، لست أدري لماذا فكرت في لوترىامون؟ هوالذي أراد أن يكون ما يكون، هو الذي أراد أن يكون في منتهى السادية ومنتهى الحنان. وفكرت، أيضا، ربما بسذاجة، أنه عندما يموت الكبار تبقى الجريمة عارية. لكن هاجسا آخر همس لي: إن الوجود يبدو أنه دائما يغار من المبدعين الحقيقيين، ولذلك يصيبهم بالموت العبثي، والمبكر، حتى لا يزاحموه في خلوده. اخلد إذن وحدك، لكن عندما يموت كبارك فانك ستبقى وحدك، أيها الحارس الابدي على الجريمة.

كان يتكلمان بالانجليزية. أفهم أكثر ما يتكلمان عنه. هما في ماضيهما وأنا شارد بينهما في تأملاتي. أنا كذلك لي ماضي، لكنني لم أعد أجد من أستعيد معه حنيني اليه بلذاذة. لقد أبعدنا الزمن المتردئ، يوما فيوما. هناك من شيخته حياته سيئا أو جُنَّ أو هاجر أو مات. لا أدري، مع رفقاء الماضي، أهي فاتتنا أزمنة جميلة كنا نستحقها؟ لكن عبثا رثاء مصير لم يحن بعد. «إن مصير الانسان لا يكون ملكا شخصيا له إلاّ عندما يكون مُشابها لما تحتوي عليه ذاكرته» كما يقول إدواردو ماييا Mallea Eduardo .

استيقظت من أحلام يقظتي عندما سمعتهما يتكلمان عن جين

بوولز المريضة في La clinica de REPOSO de los ANGELLES في مالقة. تردد اسمها هي وأحمد اليعقوبي، والمرابط، وبراين جيسن ونورمان جلاس عدة مرات.

مساء اليوم التالي حملت معي قصتين: «العنف على الشاطئ» و«بقول الأموات». استعملنا الاسبانية نقلا الى الانجليزية. أعجب بوولز بالقصتين. لم نكن قد أنهينا بعد ترجمة قصة «بشير حيا وميتا»[14] عندما وصل الناشرالانجليزي بيتر أوين Peter Owen الى طنجة. لم يقل لي بوولز عنه شيئا كثيرا. وبعدما نشر أوين كتابي ولم يدفع لي حقوقي في النشر، ما عدا مائة جنيه كتسبيق، أدركت أنه عَوْلَق. Vampir هو نفسه يعترف بأنه جانجستر، Gangster، لكن دفاعا عن نفسه، يدعي أنه يساعد المغمورين على البروز والشهرة.

لعلّ عبد القادر الجَنابي (الشاعر العراقي) كان على حقّ حينما قال: «كَوِّنْ لنفسك شهرة ثم مَثّل في ذهن القارىء.» وكنت أريد أن أمثل. مبتدئا كنت وما كان يهمني هو أن أنشر ما كتبته حتى وإن يكن هناك احتيال وابتزاز: أن أنشر كتابي الاول. كان بيتر أوين قد نشر «حياة مليئة بالثقوب A Life full of holes» أو «العيشة المذلولة» – كما هي مسجلة في الاصل عند بوولز – لادريس بن أحمد الشرادي (اسمه الحقيقي العربي العياشي) وهي سيرته الذاتية، و«الحب بحفنة من الشَعَر Love with a few hairs» لمحمد المرابط وجاء من جديد بحثا عن ضحية جديدة.

سبق لإدوار روديتي أن حكى لبول بوولز شذرات عن حياتي

المتشردة الى حـــدود العشرين من عمري، وحكاها بوولز لبيتر أوين.
اقترح عليّ أوين أن أكتب سيرتي الذاتيــة فأجبته فورا:
– ولكنها مكتوبة، وهي عندي في شقتي.
فوجئ بــوولز فنظر اليّ باندهاش. اتسعت عينا أوين الماكرتان وقال:
– وإذن فلنوقــع الآن عقدا مؤقتا. سأعطيك مائة جنيه تسبيقا عند استلامي المخطوط مترجما من طرف المستر بول بوولز.
وافقـت بهزة من رأسـي ووقعنـا، ثلاثتنا، العقد الـذي كتبـه بوولـز على الراقنة دون أن يعلق بشيء. سأعــرف، فيما بعد، أن بوولز يحب مثل هذه المغامرة المبهمة؛ لأنّ حياته كلها كَوَّنها على ما هـو غامـض وغرائبي الى حدّ العدمية التي يقود الـيـها أشخـاص قصصــه و رواياته: «إنّ أشخـاص قصـصـي قد أنفيهم الى التشاؤم من غير أن يسقطوا في العدمية كما يفهم القراء و النقاد العاديون.» هكذا يدافع بوولز عن نفسه.

لـم أكـن، في الواقـع، قـد كتبت بعـد جملـة واحـدة مـن سيرتي الذاتية «من أجل الخبز وحده» كما هي في عنوانها الأصلي العربي. كنت أحلم بكتابتها يوما ما، بعـد أن أحقـق بعضا مـن الشهـرة الادبيـة. أحداثهـا كانـت مطبوخة جيدا في ذاكـرتي. إنّ «طاجين» حياتـي كنـت قـد قدمتـه فـي أطبـاق مختلفة الـى رفاقي التلاميذ في العرائش، عُشاق سماع المغامرات التي لـم يعيشوها ويسمعوا عنهـا. ومثلمـا تُسعـف الأميـين ذاكرتهم بـدأت، في نفـس الليـلة، كتابة الصفحات الأولـى فـي سُـدّة (عِلـيَّة) مقهى روكسي حتـى غلبنـي

السكر، وأضعفني الجوع، ونفضتُ جيوبي، كالعادة.

كل يوم أكتب وأذهب عند بوولز، مساء، لأملي عليه جملة إثر جملة بالاسبانية فينقلها مباشرة الى الانجليزية. ليس صحيحا أنني أمليتها عليه بالدارجة المغربية، إذ أنني غير متمكن من فنّ الحكي الأدبي بها. حتى أحمد اليعقوبي، وعبد السلام بولعيش، ومحمد المرابط وادريس الشرادي، أمهرهم في الحكي، استعملوا مع بوولز ما يعرفونه من إسبانيتهم العادية لنقل حكاياتهم الى لغته الانجليزية. إنهم كانوا يسجلون حكاياهم بالدارجة المغربية تتخللها تسمية بعض الاشياء بالاسبانية. وكان بوولز يقوم بالنقل والتعديل (وليس الترجمة) وهم يساعدونه بالشرح والتأويل. أكيد أن بوولز كان يعيد صياغة النصّ أكثر من مرة، عند التنقيح، قبل ضربه نهائيا على الراقنة، رغم أنه ينفي ذلك أمانة أوخدعة فنية.

غالبا ماكان يجيء المرابط وقت اشتغالنا. نتوقف لحظات لنتكلم قليلا ونتلاطف معه. إن بوولز لا يسعى الى الانسجام في حياته مع الآخرين. إنه يحطمه على غرار «الأبواب المقفلة[١٥]»، أو مثل ما هو تانر Tuner في "السماء الواقية" حيث يعمل باستمرارمزعج وممل على إفشال حميمية بورط مع كيط ولو دون قصد منه: يصاحبهما أنما ذهبا. وكان بورط في أمسّ الحاجة الى أن يكون وحيدا مع كيط. لم يبق لتانر Tuner إلاّ أن ينام معهما في فراش واحد. وقد ظل يستميلها بالحاح حتى نام معها. لكن رغم هذا التماسّ يبقى «الناس

لا يصيرون أبدا قريبين حقيقة من بعضهم البعض. إنهم فقط يتوهمون ذلك» كما تقول ديّ Day زوجة الدكتور سلاد Slade في "الدَغَل الأحمر Ap above the world" في أصلها الانجليزي.

إن بوولز يحب دائما الصراع بين المرابط ومن يفد من أصدقائه أومعارفه أومجرد زائريه لاول مرة، لكنه لا يقدر على تغيير شيء في حضور المرابط أو أنه يريد ما يحدث لينتشي به. إنه يبتسم بسخرية ولامبالاة في المواقف الحرجة. وغالبا ما ينكمش مثل "القنفذ" كما يسميه المرابط نفسه. ولم يسبق أن حدثت بيني وبين المرابط أية مِواجهة مُشاكِسة. إنه عندما يدخل يُهَيْمِن ويصير بوولز مستعذِبا هذه الهيمنة – اللعبة التي يعرفها كل من يزور بوولز. قد نشرب فنجان شاي أسود آخر بالليمون يعده بول نفسه أو المرابط، إذا كان رائقا مزاجه. من عادة المرابط أن يعلق بحماس مُبالَغ فيه على أيّ حدث سياسي سمعه من الاذاعة أو التلفزة محليا أودوليا أو من أحد المقاهي. ومن عادتي أني لم أكن أناقش معه أيّ موضوع بعمق. بول غالبا ما يلزم حياده الدبلوماسي: «آه! هل صحيح حدث ذلك؟ يالأسف. إنني أفهم. نعم. لا. محتمل. ما كان ينبغي أن يكون الامر هكذا كما تقول. . . » هكذا يتكلم بول في حضور المرابط إذا كان الموضوع مُحرجا. أما أنا فأكتفي بهزّ رأسي. ينصرف المرابط أو يبقى. قد يأخذني معه في سيارته الى وسط المدينة. كنت معتادا على تفقد حاناتي الليلية وعاهراتي قبل دخولي الى شقتي البائسة في الطابق الاخير: برد وقطرات تتساقط من السقف في الشتاء، وفي الصيف أختنق بما تختزنه الجدران من شمس

يوليوز وغشت. الزوايا لا تخلو من العناكب وخرائط صغيرة شكلتها الرطوبة. لم يكن عندي ما يُزيّن الشقة.

تخلىّ المرابط عن الشراب منذ سنوات مخلصا للكيف والمعجون. إنه ماهر في إعدادهما. لم يعد بول يدخن الكيف في السبسي. يحشوه في سجائر سوداء. خارج منزله يكتفي بتدخين سجائر إنجليزية. إذا دخن الكيف، وكان سيخرج الى المدينة، فانه يمضغ كَبْشَ قَرَنْفُل حتىّ يخفي رائحة الكيف. إنه حريص على آداب المعاشرة الاجتماعية Étiquette.

للمرابط ذكريات معَ البغايا اللواتي عرفهن شابات واليوم تجعدت وجوههن، وأيديهن وازرقّت شرايين سيقانهن، وتسوست أسنانهن وترهلت أجسادهن. يحب أن يزورهن، لكنه يَسْتَحِبّ أن يصحبه رفيق الى حاناتهن. يكرمهن بسخاء. يجد غالبا أكثر من واحدة منهن في نفس الحانة. صارت تروقه رفقتي. ربما لأننا من نفس الطينة، أو أيضا لأننا ريفيان، والريفيون يتآزرون، خاصة في الازمنة الاخيرة، فيما بينهم. لم يكن المرابط يتناول غير الليمونادا وأنا البيرة أو الويسكي. لكن، رغم هذا التلاطف بيننا، فقد كانت هناك عثرات: كان، أحيانا، يقاطعنا عندما كنا نشتغل أنا وبول في ترجمة الخبزالحافي. لقد تفاقمت غيرته من عملنا بشكل جدّ سخيف الى حدّ القَرَف حتي أنني فكرت في الانسحاب نهائيا، لكن بول أنقذ الموقف في الوقت المناسب: فذات ليلة نهض غاضبا ودخل المطبخ. خرج حاملا مطرقة

صارخا في وجه المرابط: «أخرج من هنا وإلاّ قتلتك.»

كنت أعرف أن بول قادر على قتل آلاف الأشخاص في مخيلته المُبدِعة، ولكن في الواقع ما كنت أظنه قادرا على قتل ذبابة. لكن تبين لي أنه لا يسمح لكرامته أن تُهان بمثل هذا الاستهتار الصبياني. كان المرابط قد أزعجنا الى حد الغضب ونحن نشتغل.

غادر المرابط الشقة بهدوء. لم يسبق لي أن رأيت بول ساخطا كما في تلك الليلة. توقفنا عن العمل وأشعل سيجارة محشوة بالكيف وراح يدخنها مسترجعا هدوءه. كلانا يدخن سيجارته في صمت مبهم. لم أكن قطّ أتخيل أن بول يجرؤ على أن يهدد أحدا بمطرقة، لكنني أدركت أنه بول القادر على كتابة "العقرب"، "دعه يسقط "، "مشهد بعيد"، "طريدة هشة،" "علال" و"البستان"...![16] بعد لحظات عاد المرابط واعتذر لبول ثم خرج. كانت هذه هي المرة الاخيرة التي أزعجنا فيها ونحن نعمل. ولم يكن من عادة بول أن يدوم حنقه أو يعلق كثيرا على مثل هذا الحادث الطائش. إنه يُسامح، ولكنني لا أعرف إن كان يعاني أم لا! ذات مساء، ذهبت عنده سكرانا وصرت أثرثر عن أشياء لا تعنيه في شيء. في اليوم التالي اعتذرت له. قال بهدوئه المعهود:

– انس ماحدث. فقط أننا لم نشتغل، لكن لماذا كنت تريد أن أحضر لك صبيا مشويا لتأكله؟ أصحيح عندك هذه الرغبة؟

– أنا؟

– نعم. هكذا كنت تردد بإلحاح رغبتك في أكل صبيّ مشوي.

– لا أذكر شيئا من هذا.

– هذا أفضل.

شيء عن جين بوولز

إن جين أو جاني Janie، كما يُحَبِّبُها أصدقاؤها، لم ترد أن تخلق مستقبلها.

بول يقول اليوم: «جين تزوجتني لأنها كانت تهرب من أمها أكثر من هروبها من الرجال. أما أنا فلم أهرب. كفاني تجاهلي النساء» وطبعا لم تستطع جين أن تتخلص من انطواء طفولتها وأهواء شبابها. كأنما كانت تريد أن تحقق: لِتَبْلَ الاشياء التي تملكها لأنها الجِدّة السامية التي تريد. لا يستطيع أن يؤثر في عصره إلاّ النبيّ أو الشاعر، وجين كان عليها أن تمثل كوميدياها، لكن عصرها لم يقبلها. كان تمثيلها خارجا عن المألوف في حياتها اليومية وكتابتها تريد أن تتخطى عصرها في الكتابة، في الحب، في الصداقة، في الحديث وفي طريقة لباسها وقُصّة شَعرها الغلامية. حريتنا ألاّ نكون أحرارا لأحد، وجين أفرطت في طيبتها فأعطت الكثير من حريتها للذين لا يستحقونها. أتذكر هنا ما قاله شاعر الحمراء محمد بن ابراهيم: « وُلِدتُ رجلا فلم أ كُنْه. » وكذلك كانت جين. فقد عاشت جين أخرى غير التي كانت تريد أن تعيشها وتستحق. كانت بطلة عصرها في جرأتها الادبية وسلوكها، لكن الجمهور لا يريد للبطل، إذا هو لم يستمرّ في انتصاراته، إلاّ أن يموت أو يصاب على الاقل بمرض مزمن حتى ينتشي بمأساته. كانت نزعة جين، في عزّ شبابها، ثورية راديكالية وليست تَوافُقية على غرار النزعة الطاوية[١٧]. لكنها لم تستطع أن تستمر في تجاوز الإحباط وقهرالموت بتمجيد نفسها إبداعا أدبيا دون أن تنتظر من يؤازرها. لأنه

إذا كانت الحياة ضد الانسان فمن حق الانسان أن يكون ضد الحياة.

الخوف، بالنسبة لبول، حاضر على الدوام. وبالنسبة لجين كانت تخشى ولا تخشى. إنها لا مبالية وخوفها ظرفيّ. إنّ العشاق يفقدون رشدهم عندما يبالغون، وجين بالغت في العشق الهارب منها ففقدت رشدها. أما بول (قارورة الكآبة Gloompot كما أسمته جين، المسكون بالجبرية) فإنه صامد. وربما حقق شيئا مما قاله جنيه Genet في الأسير العاشق «إن حياتي المرئية ليست سوى خدعة جدّ مُقَنّعة.»

ماذا عساها تفعل المرأة الدميمة بالمرآة؟ إنّ جين كان لها جمالها المتميز في صباها، ودمامة في شيخوختها، بسبب العياء النفسي والانحطاط الجسدي، فانطفأت تماما جاذبيتها حتىّ الرماد حيث لم يعد لها سوى أن تكسر كل مراياها وتترك من يجمع شظاياها.

ليست هناك رواية واحدة عن حياتها مثلما نتساءل عمن كان، حقيقة، يريد التخلص من وجود بول الصغير، أهو أبوه أم جدته من أمه أم كلاهما كان يرغب في عدم وجوده؟

إن جين وبول أرادا أن يؤسطرا حياتيهما، تحديا وانتقاما من عائلتيهما. ربما اتفقا، سرّا، على هذا القرار ورميا مفتاح اللغز في مكان مجهول: مثل طنجة نفسها. أين مفتاح متاهاتها...؟ جين تتماسّ ولا تلتقي حتىّ مع نفسها. إذا هي دعيت الى سهرة فقد تقضي أكثر من ساعة مترددة بين أن تلبس هذا الثوب أو ذاك، حسب رواية مدام جيروفي. لكن بول يذكر أكثر من هذا: فقد كتب في رسالة الى أبويه رينا Rena وكلود عن حفلة تشريفية Gala من طراز ألف ليلة وليلة

أحيتها باربارا هاتن Barbara Hutton حضرها مائتا ضيف جاء كثير منهم من لندن وباريس – حسب قوله: «بما أننا استلمنا دعوة، فقد حضرنا، وجين قضّت أسبوعا مشغولة في إعداد أزيائها. يمكن لكما أن تتصورا التهيج! آن (هارباش) (Anne Harbach) أوصت على لباس سهرة جديد للمناسبة. في كل ساعة كانت هناك استشارة هاتفية وجين غيّرت رأيها على الأقل عشرين مرة حول ذهابها أولا ذهابها. أخيرا ذهبنا وكل شيء كان على ما يرام.» وظلت جين أيضا تتردد في الالتحاق ببول في طنجة ستة أشهر حتى جاءت مصحوبة بعشيقتها الجديدة جودي Jody في ٣١ يناير عام ٤٨ خائفة مما ستواجه في هذه المدينة ذات السمعة المغرية والمخيفة معا.

لاننسى هنا أن أم جينَ كانت تدللها وتختار لها ملابسها وتُلبِسُها وهي بين السابعة والثامنة عشرة من عمرها. لقد دللتها الى حدّ الجنايــة على حياتـها. "ولكن إنْ فَسَدَ الملحُ فماذا يُمَلّح؟" (إنجيل متى – ٥ – ٣).

كل علاقة، بالنسبة لجين، لم تصر إلاّ وَهْماً. لقد فقد ت التماسك بين ما هو واقعي وما هو خيالي. الناس، في نظرها، هم أيضا يتماسون ولا يتقابلون ويتطابقون. إنها وحيدة مزاجها وأفكارها. ورغم أنها كانت تعيش علاقات حميمة ومتحررة جنسيا، مع نساء من بلدها وغير بلدها، فانها لم تسمح لبول أن يمارس معها الجنس إلاّ عند الزواج منها. ولم تدم علاقتهما الجنسية سوى سنتين ونصف ثم اعتصم كل منهما في جنسيته المثلية ليعيشا قريبا وبعيدا عن بعضهما البعض في آن

واحد.

التقت به في نيويورك في إحدى ليالي نوفمبر العام ٣٧. ما أعجبها فيه هو أنه يبتسم بعذوبة. كانوا جماعة يدخنون الماريوانا في هارلم. ومنذ تلك اللحظة صار عدوها المحبوب. تزوجا في ٢١ من فبراير العام ٣٨. لكن هذا الزواج تم ّ ضدّ إرادة أمها؛ لأنها كانت تريد لابنتها أن تتزوج يهوديا مثلها، غير أن جين كانت لاسامية الى حدّ التزمت، وكذلك تزوجها بول لِيُغْضِب أباه المناهض للسامية. وإذا كان نورمان غلاس Norman Glass[١٨] قد رفع دعوى ضد أمه لكونها يهودية (ولا نعرف هل كان جادا أم أنه مجرد مزاح) فإنّ جين اكتفت بأن تعيش بعيدا جدا عن أمها.

كانت جين متعودة على الكلام والتفكير بالفرنسية (التي أتقنها أيضا بول)، وكتبت بها روايتها الاولى: «الحوذي المنافق Le phaéton hipocrite» قيل أنها ضاعت، لكن جين، التي تتملكها نزعة تدمير ما تنجزه، قد تكون هي نفسها مزقتها.

عاشت جين آور Jane Auer متحدية كل التقاليد والاعراف. وعندما أنهكها المرض الجسدي المزمن، والاحباط الادبي والعاطفي عانقت الصليب وآمنت بالغفران (جعلوها تعانق الصليب وتستغفره وهي في شبه غيبوبة المرض ومحنته، حسبما رواه لي بول.) إنّ ما دمّر جين هي عدميتها مع نفسها لكي ترضي نزعتها المازوخية: أن تحقق لذة الاخفاق وملاشاة ما تنجزه؛ لانها قلما ترضى عنه. كل شيء ينبغي خلقه. بالنسبة إليها ليست هناك تسلية أو عزاء في الحياة اليومية.

وكتابتها كانت خلقا وليس تقليدا، ولذلك عجزت عن أن تتم الكثير مما تبدأه. أما بول فلم يكن ينقّح كثيرا ما يكتبه كما يقول هو. لكن الغريب هو أن جين لديها ميل كبير لهدم ذاتها وإرادة قوية للعيش أما بول فقد اكتفى بتشاؤمه، حسب زعمه. التشاؤم، بالنسبة اليه، شيء إنساني، والعدم لا ينبغي أن يُنسَب الى هذا العالم، لكن بول عدمي حتى نخاع العظام.

إن معضلة جين بوولز هي أنها تريد أن تسكنها الكتابة، ولكنها لا تستطيع أن تقبض عليها وتسكنها باستدامة كما تريد. لم تغالب وتكابد بما فيه الكفاية، مثل بول، لكي تضع موهبتها في كتاباتها إنما فضلت أن تضعها بين أصدقائها ومعارفها وحتى من لا يعرفها من العابرين. إنها لا تكاد تمسك بخيط أريان Ariane حتى ينفلت منها. فهي حقا موهوبة، لكن ينقصها عناد الجلوس ساعات ليلا أو نهارا كما فعلت كوليت، وسيمون دو بوفوار، ويورسينار ومرغريت دورا. لم يكن يشد جين الى المقعد القاسي الضابط، المنتج، إلاّ كتابة الرسائل الطويلة الى بول أو الى أصدقائها شاكية أحوالها المادية المتدهورة أو متذمرة من علاقاتها العاطفية مع «الشريفة» ومن يحيط بها من النساء اللواتي تتزعمهن لاستنزاف مال «هاذ النصراينة الكافرة بالله» كما كنّ يقلن عن جين.

هناك لحظة قد نبكي فيها مرة واحدة بمرارة. ومن يبكي أكثر من مرة فماذا نفعل له؟ فلنتركه يبكي ما شاء من مرّاته حتى يعيا منه البكاء. لسنا حراسا على حدود مشاعر الانسان. دَمّر نفسك ما شئت.

إنك ابن كل المُنَبِّهات، والشّره، والاستمناء الإفنائي. لا تخش من يلومك. إنك تغني وتذهب، ترسم وتذهب، تكتب وتذهب وتخلق ما تشاء وتذهب. رجاء، اترك هذا العالم لنفسه ولا تفكر في كيفية توالده، لانه لا أمل فيما يتوالد منه كما تحب. إننا حقا نتمرد، ولكننا لانتوالد كما نريد. لو أنّ حكمة بعض الأنبياء تعصمنا!

إنّ جين بوولز لم تكن تحب إلاّ الهارب منها. من الهارب إذن من الآخر أهي الكتابة أم هي؟ الواضح أنها كانت تحب الناس (الفَناء) أكثر من الابداع عنهم (البقاء). كادت أن تفنى مثلهم. إنها لم تحتجّ بما فيه الكفاية على ما هو جدّ عادي في حياتهم وحياتها. وكانت قادرة لو أنها قهرت ضعفها. لكن عاطفتها هي الأقوى فيها على الهشّ في الحياة التي عاشتها مع الناس في استسلام.

لعل محبطاتها المتتالية، خاصة العاطفية، هي التي نغّصت عليها حياتها وساهمت في إشلالها ودمارها حتى أعجزتها عن الكتابة فصارت «عبقرية منسية.»

إنّ جين ترفض الانضباط في الكتابة، أو أنها لم تكن قادرة عليه مثل بول الذي يتكيف ويتلاءم مع أسوأ الحالات ليكتب كما حدث له عندما كان يكتب روايته «دعه يسقط.» إنّ الأوضاع المملّة أو العاجزة أو المؤلمة قد تكون حافزا منبّها للكتابة. يقول في رسالة الى وليام رايت William Wright (٢٣. ٧. ٥٤) : «لكن ربما هو الملل الذي يحتاجه المرء لكي يعمل جيدا.» ثم يضيف: «لقد تحققت من أن القضية هي هكذا. ينبغي للمرء أن يكون مملا حتى يرغب في

الهروب بقوة كافية.» وقد لازمه هذا التكريس للعمل منذ مراحله التعليمية في الرسم، والموسيقى وأخيرا الكتابة التي انتقل اليها من الموسيقى مثل حرباء كما قال في استجواب له لغيلا سروقا. Ghila Sroka لقد ظلّ وفيا لآرون كوبلاند الذي قال له: «إذا أنت لم تشتغل في العشرين فلا أحد سيحبك في الثلاثين.»

سأله شاكر نوري في استجواب معه هنا في طنجة:

– لقد لاحظت أن هناك جَنْبَكَ مجموعة من أعمالك، أهي ذات قيمة نفيسة بالنسبة لك أم أنك تعيد قراءتها؟

– إنها هنا لأنها هنا. أنا هنا لأنني هنا وليس لأنني اخترت ذلك. ربما عندما نكون في مرحلة الشباب قد نفكر في إنجاز الكثير من المشاريع. أنا شخصيا لم أفكر في أية مشاريع لأني كنت واثقا في عجزي عن تحقيقها. ومنذئذ قررت أن أترك الحياة تحقق مشاريعها. واليوم أقول لك بأني لا أتوفر على أيّ مشروع في ذهني. فقط في نهاية السنة القادمة سأبلغ الثمانين من عمري. (وقتما أجري معه هذا الاستجواب)

– هل تحب الوحدة؟

– كلاّ، بل أحب الصمت. إنه السبب الذي جعلني أرفض العيش في نيويورك. ثم إننا نعلم أنه لكي نشتغل بشكل جيد فينبغي لنا أن نكون وحيدين.

كان بول محظوظا خارج محيط أسرته حيث وجد دائما من يشجعه ويوجهه في إبداعه وعلى رأسهم جرترود شتاين التى نصحته

بأن يهجر الشعر ويجرب حظه في شيء آخر، وآرون كوبلاند وفرجيل طومسون وجهاه الى الموسيقى. وعندما أطلع بوولز جرترود شتاين على أشعاره لتعطي رأيها فيها قالت لـه على مضض: «طيب، إن المشكلة الوحيدة لهذه الاشعار هـي أنهـا ليست شعرا.» أما جين فلم تجد أحدا في مستوى هـؤلاء عندما بـدأت تكتب. إنها خالقـة نفسها. ولقـد عانت كثيرا مـن العجـز لإيجاد الكلمات الخلاقة. كانت تمـزق، باستمرار، ما تكتبـه، لكـن ميزتها أنها لـم تكن تنـدم أو تبكي على ما تحطمه مثل طفلـة غرّيرة بـل قـد تعزّي نفسها وتفـرح، فـي صمـت، على مـا أجهضتـه؛ لأنـه قـد يكون مشوها، في نظرها. وإذا حدث لها هذا العجز في الكتابة فإنها تغرق نفسها في الكحول: قد تشرب وحدها زجاجة كاملة من جين - طونيك في شقتها (مثل كيط في السماء الواقية التي شربت زجاجة كاملة من الشمبانية على الريق في الفراش، ومعلوم أن فيها ملامح من جين) أو تخرج لتتسكع في الحانات لتفجير أفراحها بطريقتها الساخرة التي قد تجرح من لا يعرفونها. إنها تريد دائما تكسير المعتاد. هـي، قطعـا، أذكـى مـن عمرها منـذ صباها (مثل بول). ربما موت أبيها وهي في حدود الثالثة عشرة من عمرها (وأيضا كانت وحيدة أبويها)، هو ما أذكاها قبل الاوان، بالنسبة لعمرها. يرى فيها غينسبرغ ذكاء، نبوغا، احتشاما واحتراما، وتذكره شخصيتها بجوان Joan Vollmer زوجة برّوز.

إنّ جين هي من أكثر الراهبات أمام الكلمة الموحية. ولعلّ «في البدء كان الكلمة» كان أكثر مـا يُرْهِبُها: إذ كل كلمة تكتبها فهي عرجاء،

حسب اعتقادها، وذنبها المسكونة به لا تريد أن تحدده وتبوح به. التدمير الذاتي وُلِدَ معها وكان قدرها المحتوم.

أخلاقها صارمة، محتشمة؛ فهي رفضت، عندما أصيبت بمغص هضمي، أن تكشف للطبيب عن جسدها. لم تكن ترغب في إنجاب أطفال. لعلها كانت تخشى آلام الحمل والولادة أو ربما الموت نفسه. إنها بالغة الشجاعة وبالغة الخوف: أتذكرهنا إدغار آلان بو الذي كان يوقظ، في قصصه، الأموات في توابيتهم، وقبورهم بينما هو كان يخشى أن يأوي الى فراشه لينام وحيدا في سلام. إنّ مثله، في العمق، كانت جين بوولز وإن هي لم تُنهض أحدا من قبره في كتاباتها. كان لا بدّ لها أيضا من تخدير نفسها بالكحول، والمنومات حتىّ تنام أو عندما تريد أن تأخذ المصعد: حيث يغدو كل شاهق يغمرها بدوخة الصعود، وكل منحدر يشعرها بالسقوط في هاوية لا قرار لها، وكذلك هو النفق: فهو بمثابة متاهة لانهاية لها ولامخرج منها. جين تخاف أيضا من النار، ومن الكلاب، ومن التماسيح وحتى طحالب البحر... ! لم أعرف جين شخصيا، لأنه حينما قدّمني إدوار روديتي الى بول بوولز كانت هي في مرضها العصبيّ والأسيان في مالقة رافضة أن يزورها إلاّ الحميمين جدا في حياتها، لكني استمعت الى الأحاديث الطويلة عنها من بول والذين عرفوها وعاشروها مثل التمسماني (السائق السابق لبول وجين)، وأحمد اليعقوبي (رسام مغربي)، والعربي اليعقوبي (ممثل ومجهِزّ ملابس التمثيل)، والحمري (رسام مغربي)، ومحمد المرابط وهو أحسن من يدافع عن جين من بين المغاربة

الذين عرفوها. كان المرابط يُعنى بأكلها حينما تمرض – حسب شهادة بول نفسه – بينما هي أوعَزَت الى بول أكثر من مرة بأن يَطرده من العمل معهما. طبعا كان هذا في البداية، لكنهما صارا صديقين يدافع كل منهما عن الآخر. كذلك حدثني عنها برايـن جيسـن، وإمّا Emma صاحبـــة مسبـح شاطـيء B.C .B، وروديتي، وليلي Lilly صاحب Bar Parade.

لعلّ انتحار جين بوولز العقلي، البطيء، هو الذي قادها الى الافراط في الشراب، والمُسكِّنات وخليط من الأدوية. في رسالة الى فرجيل طومسون يقول بوولز عن جين: «إنها مقتنعة على أنه لا أحد قادر على تشخيص مرضها وأن الانتحار هو الحلّ الوحيد.» لقـد أرادت أن تعرّي نفسها فراحت تطعنها وتنهشها حتى العظام. ولم يكن بول يمارس عليها أيّ تعسف، حسب ماسمعته منه، لكي تتخلّى عن أهوائها، وهذه نزاهة منه. كان يشفق عليها دون أن يردعها بل كان يتحمل نزواتها عندما توقع شيكات برصيد أو بدون رصيد وتعطيها لمن يطلب مساعدتها حتى ولو لم يكن يعرفها أو تترك حسابات في بعض الحانات مثل باراد Parade يدفعها عنها هو البخيل الذي عاهد نفسه بألاّ يدفع إلاّ ما يمكن دفعه عن نفسه لا عن غيره. «دائما أخبئها و أصرف منها أقلّ مايمكن.» هكذا يقول عن النقود؛ لأنّ المال لا رائحة له Pecunia non olet.

إنّ بخل بول بوولز يتجلّى حتى في الورق الذي كان يكتب عليه بعض رسائله الى جين: ورق فظيع كانت تكرهه كما تشير في حاشية

رسالتها اليه في نهاية العام ٥٠ من باريس. انه حقا قد عاش فترة فقيرا أيام دراسته في أميركا، وبعدها هرب من والديه الى باريس، ولكنه لم يجع الى حدّ أن يرى «خَرْيَة» كلب ويحسبها دُقّة الخَرْدَل moutarde كما حدث لهنري ميللر في باريس نفسها، ولم ينم في الشوارع وتصطك أسنانه في برد ليالي يناير وفبراير مثل جنيه Genet الذي كان يتسول قوته اليومي جوّابا قرى الأندلس ولا يجد ملجأ يحتمي به من البرد والريح. لقد كان بول بوولز يجد دائما قريبا من عائلته أو صديقا يؤيه ويساعده. ولعله ورث شحه من والديه اللذين لم يكونا يعينانه ماديا الاّ حينما يكون مشرفا على الافلاس التام. ومعروف أن بول بوولز يحب المال ويؤثّر عليه محاولا دوما أن يتقرب الى من يملكه. يقال عنه: «هو يعيش حياة قناعة.» لكن لماذا لا يقال عنه: أنه يعيش حياة شحّ. فهو تعجبه حياة الرفاهية، لكنه لا يدفع ثمنها. ورغم تحسن أحواله المادية، في نهاية الأربعينات، فقد تردد كثيراقبل أن يشتري أوّل سيارة. لكن، بايعاز من براين جيسن: الشيطاني، وضع حدّا لتخوفه من الخصاص المادي فاشترى جغوار Jaguar جديدة غطاؤها قابل للطيّ Décapotable، وشغّل معه محمد التمسماني سائقا له بلباس رسمي اقترحته عليه صاحبة أوطيل فيللا ميموزا Hotel villa mimosa.

أصيبت جين بشلل نصفي سبّب لها شبه عمى ثمّ عمىً تاما قبيل وفاتها. كانت تجد أسبابا لكي لا تكتب شيئا يهم الآخرين. وقد يكون تجاهل الجمهور لروايتها «سيدتان رصينتان»، واشمئزاز أسرتها من إقدامها على كتابة هذا العمل المشين، ثم النقد الذي لم

يتفهمها حيث اعتُبرت الرواية سخيفة وباطلة لدى ظهورها. كل هذا قد ضايقها كثيرا وأثّر على حساسيتها المُرْهَفة. ومن بين الاحباطات الكثيرة ما يرويه بول في رسالة الى فيل نورنبرج Phil Nurenberg: «جين وأنا كنا قد انتهينا من الخروج من حانوت في الشارع الثامن و أنا حامل كيسا ورقيا جدّ ضخم. القصد كان هو الوصول الى منزلنا من الشارع العاشر في أقرب وقت ممكن. لكن أنايس نين Nin Anais ظهرت وباشرت مع جين أطول حديث أتذكره بينما أنا كنت أحاول منع الثلج الذائب من أن يفسد الكيس. بعد أربعين دقيقة تابعت أنايس نين طريقها؛ كانت قد حكت لجين كم أضجرتها روايتها[19]. الأمر واضح، إذن، فأنا لن أنسى اللقاء.»

لقد كانت جين تغذي نتاج بول الادبي بوجودها معه كما يعترف هو نفسه. لم يعد يكتب شيئا مهما – حسب قوله – بعد وفاتها. أما هي فكانت تنفي وجودها الادبي فيه ولا تريد أبدا أن تعتبر نفسها نِداً له عندما تقول: «لا ينبغي أن يكون أديبان في أسرة أدبية.» أهو مبرر لعجزها عن استمرار استلهام الكتابة؟ إنها متواضعة الى حدّ مهابتها. وحين كان بول يزداد شهرة في الموسيقى ويشقّ طريقه في الادب كانت هي تخبو متألمة عمّا لا تستطيع أن تنجزه ولو من أجل إرضائه. كانت تشعر بالغيرة القاتلة و الاضطراب من أحمد اليعقوبي رغم أنها هي التي شجعته على الرسم في فاس صحبة بول عندما لم يكن يعرف بعد كيف يمزج الألوان. كان أحمد اليعقوبي يرسم بحيوية وهي عاجزة عن كتابة أسطر في روايتها الجديدة: «خارج

العالم داخله Owt in the world[٢٠] التي كانت قد بدأتـها عام ٥٠ في باريس ولم تنهها أبـدا. وكانـت قصـة greem candy A stiek of هـي آخر ما كتبته في مارس ٤٩ أثنـاء عطلتها مـع بـول في صحـراء الجزائر.

إنّ جين كرّست نبوغها في الحياة خِلافَ بول الذي صبّ موهبته في تآليفـه الموسيقيـة وكتبــه دون أن تشغـله حتـى أية عاطفة جنسية ما عدا حبه لجين. إن جين وضعت أدبها في الحياة، وبول وضع حياته في الأدب مع كل تحفظاته؛ حيث يكتم سرّه حتى على نفسه: أن تراه ولا تراه محاولا أن يرى كل الناس ولا يراه أحد. أوكما هو على لسان ديار في «السماء الواقية»: «كان هو الأحساس نفسه الدائم، أن لا يحسّ نفسه متورطا في ذلك، أن يبقى على الهامش، أن يكون الى جانب الواقع لكن ليس منخرطا فيه». أما رامبو فقد نقل الادب الى الحياة دون أية تحفظات: وضع قلبه على الطاولة كما يفعل ثلاثة أو أربعة عباقرة يظهرون كل قرن حسب تعبير سيلين Céline، والآخرون يمارسون لعبة الانشاء والمحاكاة.

يقـول عنـه صديقه طومسون: «إن بول كان لـه قليـل مـن الغريـزة الجنسية.» «ببساطة لم يكن الجنس مهما بالنسبة اليه.» وأكثر من هذا فان طومسون وآخرين من أصدقاء بول وجين يشكّون في أنهما (بول وجين) كانـت لهما ممارسـة جنسيـة مع بعضهما البعض. لكن ميليسنت ديلون[٢١] millicent Dillon تؤكد أنهما مارسا الجنس، ولكنه انقطع بينهما بعد سنتين ونصف حسب ما قال لها بول نفسه. وهكذا فإنّ الجنس سيصبح إثما في حياته. وكان أيضا يخشى أن يغتصبه أحد

خاصة في حمّام مغربي عمومي. وإذا كان بول مفتونا باللواط فهدفه منه هو تصعيده حتى يصير تجريديا: مجرد فكرة حتى يسلم منه جسديا. كتب الى صديقه بروس موريسيت Morrissette Bruce مؤكدا له أن « اللواط هو موضوع أخّاذ بالنسبة لي، كما هي الجرائم الدامية، الاغتصابات، وحكايات المدمنين على المخدرات. إنها مثيرة للمشاعر لأنها ميلودرامية. إنه صراع! ومن لا يهب سنوات من حياته ليستطيع خنق أحد ما دون أن يُعاقَب...؟ »

هذا هو مفهوم الجنس عند بول بوولز. وبما أنه غير قادر على ممارسته بمثل هذا الانحراف الشاذ فإنّ تطهريته تبقى محمية مثل قوقعة. وقد كوّن ميوله التي ستشكل مفهومه لحياته باكرا حينما يكتب لبروس موريسيت هذا الاعتراف (٢٠. ٢. ١٩٣٠) : « أنا جدّ فاسد. إذا فطنت أني فاعل شيئا ممتعا يروق للناس فإني أغيره بشيء آخر؛ لا بدّ من أن يكون سيئا. ينبغي لي إزعاجهم. مُراهَقة؟ غضب. ربما ستقول بأنه جانب من عاطفة شمولية. Panemocionalismo عافاك. إذا كان، فمازلت قادرا على أن أكون سويا (أقصد بهذا اشتهاء المُغايِر أو لوطيا hetero U Homo) ، لكن، إذا لم يكن، فسيكون عليّ أن أتشرد في الحياة مفتشا عن شيء أحبه نهائيا، وهو جدّ محتمل أن تكون حيوانات. وذلك سيكون سيئا، لأنه يتعلق بفسق أكثر فسقا من التسامح العادي مع البشر. لكن منذ زمان فطنت الى أنه أينما لمست شيئا بيديّ أحوّله الى شكل فاسق. لا يمكن أن يكون هناك حبّ، مودّة وحتى رضىً "في حياتي". إن ما يمكن لها

إرضائي هي رذيلة ما. إنه أكيد، حقيقة. أن أُضْرَبَ، مثلا. عيب ما. لكـن ياله من رضا. إحراق غابات. يا لها من لذة. أن أعضّ نفسي من الألم. إنه أكثر إرضاء من التعامل سيئا مع فتاة أو رجل. طيب، حمدا لله، على الأقل أنا شاذّ بشكل (مُخَالِف). لكنه يحوّل الحياة الى سلسلة من السلالم حيث تؤدي الى أصقاع هي من العمق والنتانة لا توصف. لا يمكن لي أن أكوّن أيَّ مفهوم عن وجودي. كل يوم يجعل مني لحماً أكثر فسادا. لا شيء جسدي. هناك احمرار في خديّ، لكن أوه، ها، ها، السهم مغروز في قلبي. أن أحدثك عن ذلك يهمني. هو بمثابة أن يُحْكىَ لصديق حادث مرعب رآه المرء ولا يستطيع النسيان. إن الحكاية تحيي المشهد بقوة أكثر، عابرا، هو أكيد، لكن في مابعد يتيح للانسان أن يسترخي وينسى كل شيء الى أن يرغمه حلم ليلة على تذكره.»

إنّ بول بوولزهو الذي يعطي أهمية للمكان والناس ولا ينتظر أحدا ليسعده. أو «بمجرد ما تقبل الواقع أن الحياة ليست مسلية فستكون سعيدا أكثر» هكذا كانت الأم تقول لابنها ديار Dyar. هدف بوولزهو أن يكشف عن الفنّ ويخفي الفنان كما يقول أوسكار وايلد في تقديمه لروايته «صورة دوريان جراي.» نفس الفكرة يعبر عنها بوولز لكنه يذهب أبعد من وايلد: «اعتقادي الخاص كان هو أن الفنان مادام عدوا للمجتمع فينبغي له أن يبقى لمصلحته الخاصة أكثر ما يمكن خفيا وطبعا غير متميز من باقي الأوباش. في ركن ما من ذهني كان يسود الافتراض على أن الفنّ والجريمة كانا متحدين غير قابلين للحل

والفسخ؛ فبقدر ما كان الفن عظيما، كان عقابه بالغ الشدة...» على أن بوولز سيدوس ويسحق أية قيمة يتبجح بها الكاتب عن نفسه حينما يكتب الى جيمس ليو هيرليهي James Herlihy (طنجة ٣٠.٤.٦٦) : «تُعطَى أهمية بالغة للكاتب وأهمية أقلّ لعمله. ماذا يهم من هو و ما يحسه إذا كان مجرد آلة فقط لنقل الأفكار؟ في الحقيقة هو غير موجود. إنه صفر، فراغ. جاسوس مبعوث الى الحياة بقوى الموت. موضوعه الرئيسي هو إرسال الخبر الى الجهة الأخرى من الحدود، مرة أخرى الى الموت. حينئذ يمكن الإنعام عليه بشخصية أسطورية: «قضّى حياته بيننا، خاننا واجتازالحدود حاملا معه اللوازم.» لا أعتقد أن الكاتب يساهم في شيء: إدعاءاته لفعله هي تَخَلُقيّة (حربائية). الشيء الوحيد الذي يعرف أن يفعله هو أن يحافظ على سير الآلة وأن يتعلم تحسنها بتثاقل وفي كل مرة هو أقلّ مهارة. إن جاسوسا ما هو ماكر و، بمقياس الممكن، مجهول. إن اقتناعاته وانفعالاته الشخصية هي آلية "ماكرة." كل هذا يبدو بالغ الجدّية، لكن أنت الذي أثرته.» على أن هذه الفكرة عبّر عنها رامبو في مطلع شبابه ببضع كلمات: «المؤلف، الشاعر، هذا الرجل لم يوجد بعد!» مع ذلك، بالأنسان مطلوب منه أن يختار الوجه الأقلّ قتامة لإثبات وجوده: أن يساهم في استمرار ما سبق خلقه أو، على الأقل، أن يُرَمِّمَه.

إن بوولز لن تنقصه الشجاعة لخلق أبطال يعذبهم دون رحمة. لقد خلق عذاب الآخرين في أعماله لنيتقم مما عاناه هو في طفولته. إنه

خلاصه حتى لا يُجَنّ. أن يضع الآخرين في الجحيم ليجد عزاءه. كلنا سنذوق العذاب الأليم. لِمَ لا! لعله انتقام من الوجود البشري كله.

كثيرون، من الغربيين والأميريكيين، يقولون إنّ طنجة دون بول بوولز ليست طنجة. لكن، أية طنجة؟ أهي فقط طنجة التي أحبها بوولز و أمثاله يوم كانت لطيفة Chic والعيش فيها رخيص جدا، وحيث أيضا كان المال هو الذي يبحث عن الناس أكثر مما كانوا هم يبحثون عنه؟ إنّ فضاءها هو الذي خلقهم فيها، وقليل هم الذين ساهموا في إثرائها أدبيا وفنيا دون ادعاء. بمعنى آخر: في البداية، الفضاء هوالذي يُغْني المبدعين، ثم هم الذين قد يُغْنون الفضاء، إذا أصبحوا عباقرته.

يقول بيتر أوين، في غلاف أحد كتب بوولز: «إنّ بول بوولز يعرف المغرب أحسن من المغاربة.» ويقول أيضا في كتاب (بول بوولز كما يراه أصدقاؤه) : «في العام ٦٢. كنت أستجمّ مع زوجتي في "شفشاون" والتقيت هناك أميركيا فاتفقنا معا على أن رواية بول بوولز"السماء الواقية" هي موجز المغرب.» إنّ بيتر أوين لم يحدد لنا مستوى هذا الأميركي الذي اتفق معه. فقد يكون مجرد سائح عادي. والسياح العاديون ليسوا حجة على أية حضارة أو ثقافة ثم إنّ "السماء الواقية" ليست فيها إلاّ ملامح جدّ باهتة عن المغرب. كان عليه، بالأحرى، أن يشير الى صحراء الجزائر حيث تدور معظم أحداث الرواية. ولذلك فالورقة التي لعبها هنا بيتر أوين خاسرة. وعن السيرة الذاتية لبوولز يضيف: «في رأيي أن بول بوولز هو أكثر

طيبة مـن أن يـكـتب سيـرة ذاتية واقعية؛ لأنه يكره أن يتكلم سيئا عـن الناس.» لقـد كان على بيتر أوين أن يقول أيضا: «لأنه يكره أكيدا أن يتكلم سيئا عـن نفسـه هـو بالـذات.» وطبعا معـروف دائما عن بيتر أوين أنه سخيف فـي تصريحاته التـي يـزكي بـها تجارته كناشـر ابتزازي لحقوق المؤلفين مـن بينـها حقـوقي عـن كتابي (مـن أجـل الخبزوحـده For breada lone – الخبز الحافي في أصله العـربي.) ومثـله ميجيـل ريـيـرا مونتيسينـوس، Riera Montesinos Miguel، دانييل هالبرن Ecco Press ,Daniel Halpern – وجفري ميللر Miller - Cadmus Jeffrey. إنهـم عَوالِـقُ Vampîros هؤلاء الناشرون. فعندما طالـب وكيل أعمالي روبيرطو دي هولاندا دانييل هالبرن بحقوق نشره كتابي «جان جنيه في طنجة»، الذي ترجمه بوولز، أجابه: «إن الحقوق محفوظة لبول بوولز، وشكـري ليس إلاّ أميا.» وربما لم يكن دانييل هالبرن يعلم أن النص موجود ومكتوب أصلا بالعربية، أو أنه كان يعلم بوجوده وأراد أن يتملص منه عن قصد.

ظلت موهبة جين بوولز تنتظر انضباطها في العمل، لكن الاحباط، أدبيا وحياتيا، ظل يُعجِزها عن إنجاز ما كانت تريد إنجازه. كل الفضاءات التي عرفتها لا تحبها إلاّ وهي بعيدة عنها: إنها تحـنّ الى طنجة وهي في باريس، وتحنّ الى المكسيك أو نيويورك وهي في سيلان (شريلانكا اليوم) أو في طنجـة.

تميـزت جـين بوولز بسخريتها مـن كـل شـئ حتـى فـي أكثر الحالات الكئيبة في حياتها. ربـمـا لتتخلـص مـن عقـدة سُلطانيـة أمها

ـ وإنْ لـم تصـل الـى قسـوة و جـهل أمّ رامبو. لقد عانت منها كثيرا، ورافقـها استبـدادها طـوال حياتـها وهـي علـى بعـد قارة أو قـارتين منهـا. أمـا بـول فقـد تدبـر أمره باكرا متخلصا مـن كـل لعنـة عائلية تلاحقه. كـان أكثـر مواجهة فـي التمـرد على توجيهات أبويه الصـارمة خاصة أباه! وكانت أمه، أيضا، ضحية لِتَعَنُّـتِ أبيه!

عـرفـت جـين بوولـز الشريفة[٢٢] فـي أبريل العـام ٤٨ عـن طريق بوولـز الـذي كـان يعـرفها في «سـوق الزراع.» كانـت الشريفة تبيـع القـمح فـي دكـــان (شبيه بِوجار) ضيّـق الـى حدّ الاختناق، أيام الصهد[٢٣]. كانت كتلـة بشريـة تثيـر الاشفـاق، جهـازا هضـميا، لا أثـر فيها لما يمكن أن يُغري مـن جمـال أو سلـوك. إنهـا متوحشـة وشريـرة. هكـذا يقول عنهـا الـذين عرفـوها من مغاربة وأجانـب. حتّى جـين نفسهـا كانـت تشكـو مـن قسوتها عليها فـي رسائلهـا الى بـول والـى أصدقائها بمـا تُرهِقُها بـه مـن ابتـزاز ماديّ فادح، هـي الكريمة والمُفلِسة، في معظـم الأحيان، أوإحزانِها بمراوغاتهاالعاطفية. كانت مسيطرة عليها الى حد أنها أرادت أن تخضعها لتصوم معها رمضان. وكانت جـين تعتبـرها مثـل ابنة تبنتها. وبـدون رعايتـها (حسب قول جين) ستشقى. ولكن جين كانت ترعى غُرابا. غير أنّ هذا لم يكن يهمهـا، هـي العنيـدة الشفـوقـة. إن سحـر الشريفة، بالنسبـة لجين، هـو في الجميل المنعدم فيهـا. ولأنّ جين (مثل بـول) منجذبــة دومـا الـى مـا هـو غامـض ومبهـم ومـاينفـر منـه الآخرون فقد انسحرت بهـا. وربمـا هـذا الغامـض في علاقاتها العاطفيـة هـو مـا أدام

علاقتها بالشريفة أكثر من سابقاتها. آلم جين مشهد هذه الكتلة البشرية المكدودة، الملتحفة بلباسها الجَبَلي و «شاشيتها»[٢٤] في حجم عجلة سيارة، والمتكورة على نفسها في حانوتها - الوجار فأشفقت عليها ثم أحبتها بجنون. ما أقسى حبّ امرأ لامرأة!

إنه عناد الحب القاسي، المراد، وربما القاتل، القدري، اللاّبُدّ منه. ليس ضروريا أن يكون شاهدا أوحَكَمًا على مثل هذا الحب أحد.

إن الذين عرفوا الشريفة، من المغاربة، يعتبرونها «ساحرة»، ماكرة، قادرة على تسميم الانسان حسب المرابط نفسه، الاكثر معرفة بها. ولا يختلف معه أحمد اليعقوبي الذي يؤكد أن الشريفة كانت تسحر لجين خاصة عندما وجدت تحت مخدتها شَعَراً ودما متخثرا وأظفارا ملفوفة في رزمة خرقة. ويعتقد بول أنها حقا سممت ببغاءه، وقد تسممهما هو وجين[٢٥]. وكان أكثرما يخيفه فيها ضحكتها المفرقعة الكاشفة عن سنّها الذهبية. أما الأجانب، الذين عرفوا الشريفة صحبة جين، فإنهم ينعتونها بالتفاهة، والدمامة والخبث. لكن السؤال هو متى أُغرمَت جين بما هو مهم ومن هو جميل؟

عاشت جين بوولز لتهدم كل ما يهمها ويهم الآخرين. ومهما يكن، فإنها، خلافا لبول السادي -المازوخي[٢٦]، كانت قاسية على نفسها وليس على أشخاص كتاباتها.

إن بول بوولز لم يقتل ويعذب، واقعيا، أحدا، لكنه قتل وعذب

الكثيرين في أعماله الادبية. ومن حسن الحظ أن مخيلته لم تصل الى مستوى المركيز دو ساد. وربما لعجزه وليس لرغبته. إذ لا نعرف ماذا كان سيكون لو أنه استطاع؟ لأنه، مثلا، اقترن في ذهنه دائما الجنس بالجريمة أو الفجور. وعندما عجز عن تجريم الجنس نفهاه من حياته الى حدّ العداء. إنّ بول بوولز مجرم جنسي خفيّ لم يرتكب جرائمه.

عندما كانت تذكر كلمة «السعادة»، في حضور جين، فإنّ عينيها تتسعان ضاحكة وتقول بسخرية: «السعادة، ماهي السعادة؟ أين هي السعادة؟» وطبعا لم يكن أحد يجرؤ على أن يجيبها... ! إن سخريتها محيرة، وحتى قراءة أعمالها نجد أنفسنا ملزمين على التلاؤم مع الجانب الساخر فيها. عندما أُخْبِرَ بوولز بأن فرقة الصورانو Le sorano للمسرح الوطني بتولوز ستعرض مسرحية In the summer house" بيتها الصيفي Sa maison d'été" –في ترجمتها الفرنسية – بعث للمسؤولين على الفرقة برسالة منبها إيّاهم: «كلما بدأتم تنظرون الى أنفسكم بجدية، فإنكم تخسرون جين. لا تنسوا أبدا دعابة جين.»

نزلت من سيارة المرابط حوالَ الواحدة صباحا أمام حانة مونوكل. أشباح بشرية تمرّ. لم أعد أثق في الحشرات الليلية. كنا قد حضرنا حفلة عشاء أقامتها كلود طوما Claude Thomas في منزلها العتيق الجبلي. بول يطرب لجوق جيلالة غناء ورقصا. يقول عن الجَذ بة: «المبد أ هو أن تكون مسكونا سواء من خلال الله كما هو الأمر بالنسبة لسود افريقيا الوسطى، أو من خلال وليّ مثلما هوالحال هنا، في المغرب، أوفي الجزائر. إنهم يطلبون من الوليّ أن ينزل: يستعطفونه، وعموما

(يَردَحون) : يرقصون في الوقت نفسه. إن الموسيقى تدعو الى الرقص وتُدخلهم في الجَذبة. إنهم يفقدون الوعي. وهذا شئ ضروري. بدون ذلك فإن الوليّ لا يمكنه أن يحلّ في الشخص. غير أن هذا لا يفلح دائما. أحيانا، يتمرغون على الأرض، يحاولون الانحلال من أجل استقبال الوليّ. لكن شيئا من هذا لا يحدث. إنهم يئنّون، يبكون. وحده مسلم يمكن له أن يحقق ذلك. إن غير المؤمنين مثلك ومثلي لَعاجزون عن فعل ذلك. إنه لمن المستحيل! ينبغي أن يتوفر الايمان. إنه يسمح بالدخول في الجذبة: استحضار الوليّ. إذا لم تكن مسلما، فإنك تستهزىء بالوليّ! لكنهم يؤمنون بذلك، ولكل واحد وليّه المفضل. إنه يتوسل اليه بُغية القدوم اليه. وحينما ينتهي الرجل أو المرأة من "الرَّدْح" : «الرقص العنيف، فإنه عموما يسقط على الارض فاقدا وعيه. وعندما يسترجع وعيه فإنه يحسّ دائما بأنه في حالة جدّ جيدة كما لو أن له أجنحة. من وجهة نظر بسيكولوجية، فإن ذلك جيد. إنه لممتاز. . . »

المرابط شارك في الرقص حتى الانتشاء والاغماء. إنه رائع فيما يتقنه. أنا كنت شاهدا لا قدرة لي على البروز في مثل هذه الحفلات: إنها نشوة أخرى: ألاّ تكون أيَّ شيء في شيء لا يعنيك.

في يوم من الأيام، عائدا من الرباط الى طنجة في القطار، كان هناك طفل يرعى ثلاثة رؤوس من الغنم يحيي بيديه مبتهجا قطارا بأكمله يمرّ سريعا. لا شك كان يراه الكثيرون من خلال نوافذ القطار. قد يبتسم له أحدهم دون أن يراه الراعي الطفل. ربما يردّ عليه طفل تحيته

بنفس الابتهاج أو لا أحد. . . ! ماذا يريد الطفل الراعي؟

في الرابعة صباحا، طردني خواء جيوبي من حانة مونوكل. شممت رائحة بعض الفروج المُشهية، لكن كانت لي مشامي وكانت لهن روائحهنّ في هذه الليلة. أحسست أني أريد الاغتراب: حيث لا يعرفني حتى ظلي. «السهرات الجميلة دائما تحزنني!» هكذا قال لي أدونيس (أحمد سعيد)، في شوارع تورينو، وهو يحدثني صباح أحد عن حروب الديانات. وبين كنيسة وأخرى كنت ألحّ عليه أن ندخل حانة في انتظار خروج ادوار الخراط وزوجته من إحدى الكنائس التى كانا يصليان فيها. كان هناك أيضا مشروع زيارة متحف حيث يوجد قميص المسيح (كما يُعتقد) لكنه لم يتحقق بسبب رفيق أخذته ساقا فتاة الى حيث يتهامسان، ويتغامزان،ويتباوسان وربما. . . !

قال أدونيس ونحن ندخل حانة متحسرا على عدم ذهابه الى المتحف الذي يوجد فيه كفن المسيح: «اسمع يا محمد، إنّ ما قتلته الحروب الدينية هو أكثر مما قتلته الحروب السياسية والاقتصادية.»

عند الكأس قبل الاخيرة رجوته أن يكتب لي الابيات الشعرية الثلاثة للأعرابية المجهولة التي تلاها علي في (ألبا):

وما ذنبُ أعرابية عَرضتْ لها
صُروف النَّوى من حيث لم تك ظَنَتِ
إذا ذكرتْ ماء العُذَيبِ وطيبه
وبَرْدَ حَصاه، آخرَ الليل، حَنّتِ
لها آهة عند العَشيّ وآهة
سُحَيْرا ولولا الآهتان لَجُنَّتِ

انتشيت ولعنت مع أدونيس التيس والعنزة اللذين حرمانا من رؤية كفن المسيح. قد يكونان الآن يتنايكان. . . !

كنت أترنح وأهذي عائدا الى مسكني. وجدت في طريقي صفيحة فارغة فصرت أركلها حتى بلغت قدام إذاعة طنجة. كان فراغ الصفيحة يطنّ ويطنّ: إنه صداي. قال بواب «راديو بار» لرفيق له جالس معه على العتبة:

– مسكين! لقد حمقته القراءة والخمرة.

ولكي أؤازر نفسي وأتغاضى عما أسمع وأنساه فكرتُ في أنّ لاحياة أحد أجمل من حياة أحدٍ في العقل أو الجنون الجميل، في الصحو أو في السكر المريح. بئس الليل التُّهم، والبقايا المتروكة في نهار حارّ. الصمت في مملكة الصخب! الآن من يهيج هذا الكلب «جوبا» في صمته؟ صمت بعض الكلاب؟ لا أحد. الكل حبيبه. ربما يكون لي الآن امتياز، ومجال ليس للنائمين. الواحدة صباحا. إريك ساتي Eric Satie وقطرات تنسال من وريقات مشبعة مطرا على وريقات. كل أحدٍ أحدُه. لا أحدَ يسأل عن أحد.

من حظيّ أني لست، في هذه الليلة، مثل نلسن ديار Dyar NELSON[٢٧] أو ضحيته.

يقول بول بوولز عن المخدرات: «لا أستقرّ في مكاني. لا يمكن لي أن أبقى جالسا. ينبغي لي أن أتحرك. عندما نريد الكتابة فإنه يستحيل. لكن حينما ندخن فإننا لا نريد التحرك أو القيام بجولة. إننا نظل حيثما نحن، مركزين على ما نفعله. هذا شيء عادي. عموما، لم

أكن أدخن قبل أن أبدأ الكتابة. وهذا لم يحدث قط. لكن التدخين ابتغاء البقاء مُركّزا فهذا أمر ميسور. إنّ الناس لا يفهمون هذا. إنهم يظنون أننا ندخن لامتلاك هلوسات وأفكار سعيا للكتابة. هذا لا يعطينا أية فكرة. وفي أقصى الحالات يُلهمنا الأفكار الموجودة في الشعور الباطني، لكنها ليست بأفكار. إنها كانت موجودة هنا. إنّ "الكيف" لا مسؤولية له ولا شيء يمكنه أن يتولد. إن "الكيف" لا يخلق شيئا. لقد حاولت أن أشرح هذا، و لمرات عديدة، لصحافيين أو نقاد، لكن أغلبيتهم لم تفهم.» وفي رسالة الى Alec France يقول: «إنّ "الأرض الساخنة" [٢٨] (في الترجمة الإسبانية أو العالم من فوق – world Up above the في عنوانها الأصلي) كُتِبَ كاملا بتأثير من "الكيف." وإذا لم أخطيء "الضبع" The hyena والبستان[٢٩] The Garden. وهذا لا يعني أنني لم أكن أدخن شيئا عندما كتبت بعضا من القصص الأخرى...»

قرب منزلي، اعترضني إثنان. تركتهما يسلبانني ساعتي دون أن أقاوم وأعنف معهما. أحدهما ضحك ضحكة استهزائية. إنهما من السافلين. لا عليهما. كانا منتصرين. وكنت أضعف من أن أدافع عن نفسي. فكرت: ما جدوى أن أستغيث بحارس مقهى روكسي؟ إنه عجوز. وهو الآن داخل المقهى يقظان يستريح أوهو نائم. حارس شكلي: فزاعة بشرية لا غير. سبق لحارس الحيّ المجاور أن طارد لصين كانا يحاولان سرقة سيارة. في اليوم التالي كانوا أربعة. كتّفوا له يديه ورجليه ودعكوا له أوراقا في فمه، وحشوا له "السبسي" الذي

يدخن به كيفه في أسته. هـذه هـي الحراسة في حارتي: شوف واسكت. كانا يسلبانني كـل مـا أملـك وأُذ ن أحدهمـا قريبـة مـن فمي. كـلاّ. سيسلخانني إذا أنـا عضضتـها لـه، أماَ إذا بترتهـا فحتمـاً أنهمـا سيقتلانني. ثـم هناك السبسي والاوراق المدعوكة في الفم. مراهقان مـن مدمنـي "السولوسيـون La solution"[٣٠]. إن مـرحهما وضحكاتهما يؤكـدان ذلك. ساعتي. ربمـا همـا فـي حاجـة اليها أكثر مني. ضحكا، اللعينان، وهمـا يبتعدان. غـرت منهمـا. إنّ للسـرقـة نشوتها. سبق لي أن شعـرت بها عنـدما شـاركت فـي سرقة حانوت في الترانكات. [٣١] في تلك الايـام لـم تكن تتـم السـرقة بحـشو السبسي في الأسـت والاوراق المدعوكة في الفـم. كـان للسرقة أخلاق. لم تكـن هنـاك سكـين ولا سيـف للتهديد أو الطعـن. كان هناك اللـص الـذي يسابـق الريـح.

كانت ساعتي التي سلبانها أهدانيها شاعر مغربي. لا عجب أن تُسرق هدايا الشعراء في آخر ليل الفقـراء.

انزلقـتُ صاعدا الدرج: دم في ساقيّ. الكهربـاء مقطوعة حفاظا على الطاقـة. ظـلام دامس. الليلـة أيضا هي هنـا. إنها تنام بين بابي وباب جاري فـي انتظار أن يجيء أو لا يجيء. تلبس بلوجينز وكبوطا قصيرا. لا بد أن تكو ن سكرانة أو محششة حتى تنـام هكـذا علـى الارض الباردة. كلما وجدتهـا هكـذا أضطـر أن أتخطاها لادخـل حتى وإن كانت «إحداهن» فإنه لم تعد تروق لي دعارة الغريبات. نمـت وصحوت. شربت ما تَبَقّى في الكأس من نبيذ. الساعة لا عقارب لها

الآن. تذكرت الساقية في بار ماروك. أعرفها يوم كان نكاحها أفضل من الاستمناء. اليوم صار الاستمناء أفضل من نكاحها. الملعونات! لا يتلطفن إلاّ عندما تبدأ الشيخوخة تغزوهن بشكل سيء، أو عندما يبدأن ينمن عند عتبة بابك في انتظار مجيئك متى شئت أيها السيد. . . ! من الأفضل أن نشيخ معا دون نحس. الساقية لا أدري لماذا أرغب في خنقها كلما رأيتها؟ ربما لأن فمها يَتَمَرْحَضُ إذا هي تكلمت. سأحسّ بمنتهى النشوة وعيناها جاحظتان وثقل جسدي مُتجمّع في يديّ وأنا فوقها أضغط وأضغط بجماع قواي وهي تناضل محاولة الانفلات أوْ أن تتنفس ولو نشقة من الهواء ولا تستطيع. ما أريح الدفء الذي يفارقها فإذا بها مثل سمكة على شاطىء مهجور! إن مثل هذه الجرائم المتخيلة أوحت لي بها كثير من وجوه الاغبياء المزعجين. كم جرمتُ في الخيال الذي نجاني من اجرام حقيقي! أحيانا لا نعرف لماذا نجرم.

تأملت السقف. سقفنا جميعا في بيت المستقبل الابدي. لم يعد لي من ليل طنجة إلاّ نملية من لا أعرفهم. هجم عليها التتر والمغول فاختفى أبطال ليلها منهزمين. فكرت في رشيدة الحشاشة. إنها اليوم جُنّت. تمشي حافية القدمين أو تجرّ نعلا من البلاستيك وجلبابها مُبقّع بالوسخ منتشرة فيه ثقوب من الامام. بين سبابتها وَوُسْطاها اسوِداد ممزوج بالاصفرار. إذا دخلت الى مقهى أو حانة فانها لا تطلب إلاّ السجائر. اعترضتني ظهرا وقالت من خلال أسنانها المُتَهدّمَة: «لو أنك تزوجتني لما رأيتني كما تراني اليوم.» فكرتُ، وهي تأخذ مني سجائر و

ثمن أكلة خفيفة: لا يمكن لنا انقاذ كل من نحبه. تلك جُنّت، تلك تزوجت بمن هو الآن في السجن، تلك طلقت بعد إفلاس زوجها في القمار والسكر، تلك شاخت مُتسولة في صمت دون أن ترفع يدها لمن يمرّ، تلك ماتت دون أن تجد الى جانبها من يلطف احتضارها بقطرات ماء في فمها ومنشفة مبللة على جبينها المحموم. كلهن في الحضيض أو في الرّهان على الحلم المستحيل أو في العدم الأعلى.

ليل طنجة - الاسطورة أتعبني تشيؤه، أغثتني حثالته المجرمة حتىّ لم أعد أتقيأ في الصباح إلاّ الصفراء، لكن ليل طنجة مثل صوت ساحرة عوليس لا يخضع لقواعد الرحلة الأوديسيّة كما هي الساعة لا عقارب لها في ذهن جدتي رقية أو خالتي فاظمة (بالظاظ كما ينطقها الريفيون) . الجدات والخالات يتشابهن. أما أنتَ فكلكَ لهامنك شيء، وهي لها شيء منها لك. لا تَطابُق، لكن حتما هناك تلاقح. لا أريد أن أعود الى الحَـلَمة رضيعا. كفاني الفطام قبل الاوان. لا ذكاء بالغ بين رجل وامرأة: لكل أخلاقه. أحدهما يذوب في الآخر. إنها شريعة العشق القاتل، لكن كلانا الآن يعيش متوحدا. جنون البعد يُقَرِّبنا أجمل. لي دائما موعد مع الشفق وليس الشمس. إنها لحاسري البصر.

صمت سقفي يتكسر الآن من جديد بزمّارات عرس يمرّ بطيئا في ضجيجه ليثبت وجود مستقبله الُمحتَمَل. إنك تجد نفسك أمام الصمت الليلي ينكسر بزمّارات عرس أو بزمّارات باخرة تعبر البوغاز. الزمارات الاولى توحي بالثبات للذين قهرتهم الوحدة، والثانية تنبىء بالسفر الى عوالم مجهولة تشتهيها المغامرة الهاجسة. لا شيء يُشفّفك

كما تريد من هذا الصمت الجليل إلاّ إذا شفَّفْتَ نفسك: ألاّ تريد أن تسمع حتىّ عندليبــك فإذا هــي «الجَوْقَة[٣٢]» و «الجوق[٣٣]». صمت النُّسّاك. لم يعد لنا إلاّ تاريخه. صمتك. صمت سقفك. صمت الصمت. السقف الذي لا يقاسِمُكَهُ أحد حتى في النظرة اليه. أنت تكون ما أنت عندما تنتهي من عملك. كم أكره من تستمرّ معه مهنته أينما حلّ! أن تجرد نفسك، أن تتمرد على رب عملك، ألاّ يُزاحمك أحد في وحدة سقفك، ألاّ نزاحم حتىّ أنفسنا، أن نعزل حتىّ أنفسنا عن أنفسنا، أن نغلّق أبوابنا حتىّ في وجه أعزّ من نحبه ويحبنا. فَلْيَصمُد من هو أكثر صمتا ووحدة، ولنحذر من مُجَامَعَة القطيع!

١٩٩٤.٥.٣

زرت بوولز هذا المساء صحبة روبيرطو دي هولاندا حوالَ التاسعة. وجدناه يدخن سيجارته السوداء المحشوة بالكيف في فراشه. سألته:

- كيف الحال؟

- كما ترى. إني وحيد.

- في الوحدة إما أن يكون الانسان عبقريا أو بليدا.

وبابتسامة ساخرة قال:

- ولماذا ليس هما معا؟

عندما سئل بول عن دواعي زواجه جين أجاب: «لكي أتخلص أنا من النساء، وتتخلص هي من الرجال.» لكن بول يقول بأن هذه رواية

لفقّها النّمامون. أما جين فإنها تتبجح بشذوذها بينما بول يكتمه أو يراوغ إذا سئل عنه. منذ البداية اتفقا على أن لا تكون بينهما أية خيانة؛ فهي ستعرف كل عشاقه، وهو سيعرف كل عشيقاتها. ومعروف أنه ورث من التطهرية أكثر مما ورثت جين. طوال عشرتهما لم يكن أحدهما يعرف من كان يترك الآخر عندما يفترقان. ربما كانا يتعمدان هذا الفراق، الذي يطول أو يقصر، لخلق الحنين بينهما حسب مزاجهما. أنا أيضا أفعل هذا مع المقربين اليّ أو مع طنجة نفسها: فحينما لا أجدها في داخلها أبحث عنها خارجها والعكس لا أستغني عنه من حيث تَـلِدُ وتولَـدُ إذ ما أكثر ما أسافر، أحيانا، دون هدف، داخلها أو خارجها! قد أهجر شقتي لأسكن في فندق عائلي مات عشاقه أو قهرتهم الهجرة الى عوالم معلومة أو مجهولة. قد لا أزور حارات شهورا أوسنين. ومن المعروف عن جين أنها كانت أكثر عنادا في مطالبها لكي تعود الى بول. وكان هو يذعن. لا أعتقد أنه أحبّ أحدا (إذا هو حقاً أحبّ) كما أحبها. لقد أخذ في الانطفاء أدبيا، ونفسيا طيلة فترة مرضها حتىّ ماتت فصار يشيخ بتهكم كاتما كآبته بكبرياء. إن جين تتردد كثيرا لكي تقرر شيئا ما، لكنها إذا هي قررت تصبح أقوى من بول. وعن الفراق بينهما، الذي يحدث على فترات متباعدة، كانت هي تكتب قصة عن امرأة تتخلىّ عن زوجها وهو يكتب قصة عن رجل يتخلى عن زوجته. أكانا يلعبان لعبة الوجود الادبي؟ ذلك سرّهما مثلما هي عشرتهما. إن جين، أحيانا، تحب ما يكرهه، و تكره ما يحبه. وبينهما تَحْتَمِل حياتها في عذاب مزمن،

ونزوات هازئة برتابة حياة المحيطين بها. سخريتها كانت لاذعة، لكنها مستحبة لدى عشاقها ومريديها. معلوم أن بول أقوى من جين في تحمل عذاباته النفسية وكتمانها منذ صغره. لكأنه قُدَّ من صخر. إنه يتذمر، لكنه يقاوم الشكوى، يحب من يسدي اليه الاحسان في المأزق، لكن له نزوع قوي الى التخلص منه. ومثابرته على العمل كانت دائما تنقذه. أما جين فهي بركان في حالة فوران. إنها تعلن شكواها لأقرب من يكون الى جوارها: من تعرفه ومن لا تعرفه. هي الرغبة القاتلة في أن تفني نفسهاحتىّ لا تُذَ لّ: «أنا دائما على خطوة من اليأس.» الخطيئة والشعور بالذنب، لذة التألم دون الأيلام، التلاشي، الطموح الى ما ليست قادرة على تحقيقه في الكتابة والحب ثم الخوف من العزلة. هذا ما كان يلاحقها و يُكَوْبِسُها (من الكابوس). إنها أشقى من شارلوت برونتي.

في رسالة من جين الى ليبي هولمان LIBBY Holman من طنجة في ديسمبر ١٩٤٨ تقول فيها: « أستطيع الحصول على أجنحة و رؤوس ديوك بسنت واحد لاالجزء الواحد في المائة، اسم مسكوكة أميركية. ن لكل قطعة، لكن لا أحد لي آكلها معه، أيّ جدوى إذن من ذلك، أحسني محكوما عليّ سيئا كوني لا أجد أحدا يؤاكلني ماعدا في ليال غريبة، وليس هناك داع للأكل أكثر في وقت آخر.»

هذه هي جين الشّكاءة من وحدتها. أما بول فيحب الصمت. جين تريد دائما أن تكون نفسها، لكنها لم تستطع. أهي جبانة؟ إنها قادرة على خنق أفعى الكوبرا.

تحشم؟ أكثر من نعم. إنها إنسانية أكثر من اللازم كما عرفها الذين كانوا في حاجة الى مساعدتها لهم عكس بول الذي لم يؤمن يوما ما في حياته بما هو إنساني. كل ما كان يهمه هو أن تتحرك الأشياء في غياب تام عنه أو أن يراها ولا تراه حتى لا يكون شاهدا في شيء عنها. كل حركة ينبغي أن تكون، بالنسبة لجين، مُداعَبة؛ لأنّ الحياة هشة، لكن بول يظل عدوها الحبيب، الأقوى منها بانضباطه على العمل. كلاهما يستمد قواه من الآخر، لكن كلاًّ منهما على طريقته، إلاّ أنه هو المستفيد وتبقى هي مشدودة فقط إلى متعة ما يحققه هو. جين تقول، أحيانا: «لا شيء مقرف في الرجال»، وأحيانا تقول: «هناك شيء يقرف في النساء.» أهي الرغبة الارضائية المُتَبادَلَة دون التلاقي؟ لا شك أن كليهما كان يحب الآخر على هواه، سرّا أو علانية، لكن بول نفسه يعترف أنه ما أكثرما لم يكن يفهم تماما ما كانت «تفبركه» وتريد التعبير عنه! لم يكن خارج دائرة الحيرة التي تخلقها جين حولها. إنها جين، لكنها، في كتاباتها، حاولت دوما أن تستغلّ ما هو غامض في النساء مثلما حاول بول أن يستغلّ ما هو غامض في الرجال. وطبعا فإن جين لم يهمها بول إلاّ كعشرة وفكرة، وكذلك هي والنساء بالنسبة لبول. إنه أكيد تزوج ذكاءها وموهبتا، وعندما خبت إشراقاتها قلّ اهتمامه بها. إنه أكيد تزوج ذكاءها وموهبتها، وعندما خبت إشراقاتها قَلَّ اهتماخه بها. إن جين، في خلواتها، تحب على الدوام ما هو بعيد عنها، لكن الاحبّ هو أن تكون بعيدة عن البركان، والنَّفَق، والكلاب

الشاردة، ومن يريد اغتصابها أومراودتها ومجامعتها ولو بلطف. لا ننس أنها ورثت بعض التزمت الأخلاقي من عائلتها. لقد كافحت في حياتها لكي تتخلص نهائيا من هذه الزماتية فلم تستطع.

عندما عرفت «جين» بول بوولز قالت له حرفيا: «لا أريد أن تكون لي معك أية علاقة جنسية إلاّ إذا ما تزوجنا. أريد أن أتزوج وأنا عذراء.»

تظل هذه الرغبة غامضة حتى الآن في علاقتهما. وطبعا هي هنا لا تريد أن تذكر المرات الضائعة في العدّ التي تركت فيها نفسها تُفتضّ مع السحاقيات مثلها وهي بين الثانية والثالثة عشرة من عمرها قبل أن تعرف بول. إنّ جين ستحب الإناث بشراهة، وبول سيحب الذكور أقلّ شهوة منها. إنه قدرهما. حتى هما لا يعرفا لماذا. يتحابان، لكنهما لا يلتقيان. قد يتعانقان في فراش حميم، يتلامسان ويتداعبان، يتناجيان ويفتكران، وقد يكون بينهما تداع عن ذكريات مشتركة ولكنهما لا يتطابقان في استرجاع نفس الذكرى. إنهما ما أكثرما يلتقيان فقط ّ في هُيام الوهم! كيف كان يحدث هذا الانسجام الودود السريّ بينهما؟ لا ينبغي أن يهمّ أحدا إلاّهُما؟ وكذلك ظلاّ عاشقين للغامض بينهما حتيّ ماتت هي ولم يندم هو على هذه العشرة التي صفعت مجتمع زمانهما. إن ما تحدته هي أكثر مما تحداه هو، لكنه هو الغانم دون أن يعاني ما عانته هي.

معروف أن بول بوولز هو بارد جنسيا كما يعترف هو نفسه بصراحة. مرة سألته:

- سنيور بول، أما زلت تمارس الجنس في سنك؟
- كلاّ. منذ أكثر من عشر سنوات لم أمارس خلالها الجنس.

كان ذلك في أواخر السبعينات. ونحن نعرف أنه لم يكن يفرق بين الذكر والانثى حتىّ بلغ السابعة عشرة من عمره.

ظلّ بول وجين يستلهم كلاهما الكتابة عماّ يوحيه أحدهما للآخر حتىّ عجزت هي عن الكتابة بسبب مرضها الذي جلب لها الفشل التام. لقد انتهت الى مرحلة عجزت فيها على أن تعمل لتحلم أو تحلم لتعمل. فحتى الحلم من أجل الحلم تخلّى عنها. ولم يعد هو، بعد موتها، متفرغا سوى للترجمات، والروبورتاجات، والاستجوابات، وكتابة يوميات جدّ عادية ثمّ نّظْم أشعار باهتة بعناد. فلو كانت جرترود شتاين حية لمنعته، أكيدا، من زيارتها. هل نسمح أن نقول بأنّ للشعراء وحدهم أن يعاندوا الشعر؛ لأنه هو الفَصْل بين الأسمى والأدنى، هو البرزخ، هو الرسول بين الالاه والانسان. أما عن النصوص التي ينقلها من الدارجة المغربية فهو يقول في رسالة الى آلن جنسبرغ وبيتر أورلوفسكي: «- ٢. ٨. ٦٢ - أن أعمل فيها يُحْدِثُ لي ارتياحا ممتعا، وإنْ كنت واعيا بأنها نوع من إبداع غير مُباشِر.»

إن جين لم تتمتع إلاّ بالحب العابر. ربما، بسبب تصرفاتها المتقلبة، كانت تُبعد عنها من كان يريد أن يحبها بعمق وصدق لأن الوضع القارّ يضاعف من قلقها ومللها. ولا أتكلم هنا عن «الشريفة» وطيطوم: إذ لم تكن جين، بالنسبة لهما، إلاّ موردا للرزق في علاقتهما مع هاذ «النصرانية الكافرة بالله» كما عُرِف أنهما تقولان عنها. وحتى

الشريفة نفسها لم ترض منها جين رغبتها الجنسية سوى في السنة الأولى التي عرفتها فيها كما اعترفت جين نفسها لديفيد هربرت. كان هناك أخريات من بلدها، لكنهن لم يعدن إلاّ في الذكرى. أما «الزُهرة السمينة» فلم تكن إلاّ قحبة ظريفة استُقْدِمَت الى جين من ماخور حومة بنشرقي، ولم يكن لها وجود حميم في حياة جين سوى أنها كانت جميلة، لطيفة، طويلة القامة ومكتنزة، تأكل وتشرب بشراهة، ولها حضورها الطاغي دون أن تهدد أحدا. وكان حاميها في البورديل يخيف اسمه أو ظله الناس بشراسته إذا أغضبه أحد. وأصبحت مثل هذه العلاقات التي تنسجها جين، لتسكين قلقلها، مصدر إزعاج كبيرلبول.

إن جين كانت مُحبة أكثر منها محبوبة: فلم تربح الحب ولا الطموح الأدبي الذي كانت تصبو اليه. هذه هي مأساتها. لم يستطع أحد أن ينقذها منها لأنها ما كانت ترضى أن يسعفها أحد في مسعاها: فما أن يدركها أحد لإسعافها حتى يحزنها الاستنجاد لأنها لم تستطع أن تنجزه هي بنفسها. إنّ ما أرادته هو أن تجعل من الحياة أدبا، لكن المحيط الرديء الذي عاشت فيه حاصرها: فهي لم تعرف كيف تتخلص تماما من عقدة عائلتها التي كانت تلاحقها حتى وهي بعيدة عنها. ما كان يكرهها أحد بالمعنى العميق، ولكنها خلقت نوعا من الكراهية لنفسها دون أن يشجعها أحد. الاحساس أنها غير مرغوب فيها خلقته هي نفسها. كانت خاضعة لبعض ما تُمليه عليها أمها، أما بول فقد رمى سيطرة أسرته في المزبلة البشرية. لقد استفاد من المعاناة والغربة،

ومغامرات الاسفار. . . إنه حقا عصامي، بينما ظلت جين أسيرة من يساعدها في اجتياز محنة من محن مغامراتها. ورسائلها الى بول والى أصدقائها زاخرة بالشكوى من عدم احتمال وحدتها، وعجزها عن إنجاز ما تريد أن تكتبه وهو الخلاص الذي يمكن أن ينقذها من اليومي الرتيب في طنجة. إن أعزّ أصدقائها بعيدون عنها. أكيد أنها كانت تفكر فيهم وتحلم بهم، ولكنها لم تكن متأكدة من أنهم كانوا هم أيضا يبادلونها مشاعرها! إنه وسواس البُعد. . . ! خلقنا لنعيش دائما معا ونحن بعيدون عن بعضنا البعض.

كانت لها ولاءات لأسرتها، وأصدقائها ومعارفها. لم تُشهر الخصومة على أحد وإنما آثرت أن تُشهرها على هدم نفسها. تَمَرُّدُها على أسرتها لم يكن إلاّ طيشا بينما تمرد بول على أسرته كان جذريا اتخذه عن قرار صارم. لقد جَنَت على جين طفولتها الخائبة مع أسرتها ولم تعرف كيف تتجاوزها كما فعل بول.

لا يُعرف، حتىّ الآن، هل وهبت جين بوولز نفسها للإله أو للإنسان؟ إنهاظلت حائرة بينهما طيلة حياتها حتىّ مماتها. أحست أن حياتها منذ باكر عمرها هشّة، مُتَصدِّعة، ومن الصعب رأبها. لن تكون سليمة على الاطلاق، ولذلك انجرفت مع التيار الذي حملها الى ما صارت اليه. لوأنها كرّست نفسها لشحذ موهبتها الأدبية فلربما أنقذها من اندحارها العدمي. إنها تحب الهارب منها حتىّ التسمم. لا تشفق على نفسها في شيء. وهي بالذات التي تُبعد عنها من يحبها وتلاحق من يمتنع عن إرضائها. حقا كان لها احساس بالاثم مما

تفعله، كمعظم المتمردين على عائلاتهم التطهرية في زمانها، فهي، ما عدا خوفها من المجهول المرعب، لامبالية، لا خيال لها عن عواقب ما تمارسه. إنها قد تجلس على أفخاذ الرجال، من واحد الى آخر، لكن لا أكثر من ذلك، تتصرف مثل طفلة بريئة في حركاتها، غير أنّ أحاديثها مهمة، وما كانت تقوله يكون غالبا مُبهما يحيّر الحاضرين. ومن الملاحظ أنهما (هي وبول) عندما يفترقان يكون هو في حاجة الى وجودها معه أكثر مما تكون هي في حاجة الى أن يكون معها. لكنها لا تطيق أن تكون معه دون أن يكون معهما ثالث. ليس بمفهوم الجحيم عند سارتر في مسرحيته «الابواب المقفلة.» إنه مجرد ثالث لخلق صراع حميم: حتىّ يكون للحضور بعدٌ ما، وللعبور حضور من أجل دوام اللقاء والبقاء بينهما. وأن لا يتعدى هذا الثالث بينهما أحمد اليعقوبي الذي لم تكن تحتمل جين وجوده اللصيق ببول.

لا شك أن هذا القرن سيظلّ يذكر أراغون وإلزا، سارتر ودو بوفوار، دالي وجالا، فتجرالد وزيلدا وبوولز وجين. . . ! ومفهوم أن: "وراء كل عظيم امرأة." ليس باطلا، ولا يهم من الشّرير هي أو هو. على أنّ أفظع تدمير كان هو بين فريدا و د. هـ. لورنس.

إن بول هو حزين كما تراه جين: (قارورة الكآبة كما كانت تناديه Gloompot) ، وسخريته من الآخرين ليست إلاّ للتخفيف من مزاجه الجنائزي. ولقد وصفه صديقه آرون كوبلاند بأنه بارد كسمكة. أما جين فقد كانت قادرة على تلطيف أي مزاج متوتر بحضورها الساحر - الساخر، الطفولي حتي حين لاتفوه بكلمة. ربما كانت امرأة يحترم

بعض الرجال، في زمانها، النساءأمثالها، في زمن الرجال الاقوى من زمن النساء. وربما ماكانته هي نفسها في زمانها حيث لم تفرق بين أخلاق الرجال والنساء وإنما عاشت المساواة بشكل طبيعي دون أن تطالب بها. أكيد أن كل النساء من أسرتها تنكرن لكتابها « سيدتان رزينتان» الذي ميَّزَ شخصيتها في عصرها، لكن من هُنّ هؤلاء النساء سوى أنهن من عائلتها: نساء عاديات، أجهزة هاضمة، لا يشتركن مع جين إلاّ في القرابة التافهة، المتزمتة... التي ساهمت في انهيار جين!

إنّ جين بوولز لا تفارقها صبيانيتها اللطيفة التي تزعج بها الاغبياء. وهي ميزتها المحبوبة بين رفاقها وأصدقائها. يقول عنها آرون كوبلاند Aaron Copland: «لا أعرف أبدا ما يحدث في ذهنها. في رأيي، كانت أكثرغموضا من بول. هو محافظ، لكنه متفتح مع من يعرفهم جيدا. كان في شخصية جين جانب طفولي بارز الى حدّ ما. لقد كانت بالغة الحساسية، وسهلة التقلب، لكن فقط لأسباب محددة. ومع ذلك فيبقى صعبا أن تحزر. إنّ كل ما نعرفه عنها هو أنّ أجوبتها، مهما كانت نوعيتها، تظلّ متميزة وغير عادية. »

معروف أنّ آرون كوبلاند، وغور فيدال لم يكو نا ينسجمان مع تصرفات جين، لكنهما لم يبلغا حدّ العداء الذي كان بين بونويل وجالا سلفادوردالي. وفي المقابل كان أكثر من أحبها من الكتاب ترومان كبوتي وتينسي وليامز. لو أنه تحقق حلم جين في الكتابة لأصبحت معجزة في الادب. ومع ذلك فقد ماتت شهيدة ما لم تحققه فيه لأنها لم

ترد أن تتاجر به، رغم خصاصها، الى حدّ الإفلاس، في بعض المراحل في حياتها. إنّ ما عرقل مسيرتها في الحياة والادب هو الصدق والبرءاة، أما بول فقد رفس كل شيء يعوقه ولم يشفق أبدا على أحد من أجل تحقيق ذاتيته. الإنسانيّ في كتاباته يكاد ينعدم. وليس نادما حتى الآن.

من عادة جين، أيضا، أن تذهب حيث تخاف أن تذهب. أهي لعبة خفية أم هو عناد أم تحد؟ مرة عادت حافية القدمين، والطقس بارد وماطر، من مكان كانت قبلا تخشى دائما الذهاب اليه. لا ندري ماذا حدث لها في هذه النزوة «التعويذة». ربما لم يحدث لها شيء أو حدث رغم أنها هي التي تخاف أن تُغتَصب! إنه من أسرار أيٍّ كان يخاطر بحياته في آخر الليل، في مكان مشبوه، يعود الى منزله وحيدا. هو سرّ أجمل الليل. إنها جين أخرى: فقد تخشى حشرة لا تؤذي مثلما هي تقرب من أفعى ذات الاجراس متحفزة لقتل قطّها الوحشي مخاطرة بحياتها، بكل هدوء، لإنقاذه. كان بول حاضرا يشاهد مايحدث. وعندما سألها عن غيبتها:

– جين، أين كنت؟

– أوه! كنت في المكان الذي أخشى الذهاب اليه.

ومن معتاد بول أيضا ألاّ يعلّق على مثل هذا الجواب.

إنّ جين بوولز ممسوسة، وبالمفهوم الجيد هي عبقرية. إنها قد تعتذرعن أشياء لم تقترفها؛ فعقدة الذنب تلازمها، ومنها تستمد وجودها السحري. الوجود فيض، لكنه، بالنسبة لها، خطأً يفيض.

في أبريل العام ٤٠ سافرت جين وبول وشخص اسمه بوو Boo الى شيكاغو. كان بوو لصيقا بجين ولايكاد يفارقها في حفلات الشراب أينما ذهبت. وكانت جين تقدمه الى الناس على أنه أخوها. أما بول فكان يتضايق منه. وفي حفلة عشاء، حضرها السيناريست رتشارد يوك وزوجته، سألت امرأة: "كم لجين بوولز من إخوة؟" وهنا تَهَسْتَرت جين صارخة: "هل لنا حقا إخوة وأخوات؟"

هكذا هي جين، تحبها ولا تكرهها. قد تتشابه مع زيلدا فتجلرالد؛ فكلتاهما تخلق أشياء، وحكايات لتسلي نفسها، ولتهدم ما قد تحبه ويحبه الآخرون: إذ لا شيء ثابت يستحق الدوام. لكن السؤال عن اللاّجَدوَى دائما مطروح؛ جين بوولزوزيلدا فتجلرالد وُلِدتا معا لِخَلخَلة المعتاد في الآخرين، لا شيء يهم. الأهمّ هو إبهار العاديين: الأرانب والقنافذ البشرية، لكن زيلدا حطمت زوجها لأنها كانت تغار من عمله مشجعة إياه على إحياء السهرات الصاخبة أو حضورها عند الآخرين حتى أنهكته العربدة والسكر ومات وانتهت هي مجنونة. أما جين فكانت دائما تشجع بول على إنجاز ما كان يعمله كأنما هو تعويض عما لم تكن هي تستطيع إنجازه في عشرتهما الأدبية...!

إنّ بول بوولز يكتم مشاعره. أبدا لا تعرف ما يفكر فيه. لا يستعرض نفسه. هذا أجمل ما فيه. يحب الببغاوات ويقتني منها البُكم، وربما لها وحدها يبوح بسرّه حين يخاطبها. كان صاحب مطعم في باريس يحمل دائما ببغاء على كتفه، وكان مرسيل بروست

من زبائنه. أهدى الرجل «البحث عن الزمن الضائع» لبول، لكنه لم يهتمّ كثيرا بالهدية قدرما عشق الببغاء، و ربما تمنى أن تكون له.

عندما يقع بول في حرج مع الآخرين فإنّ جين هي التي تسرع الى إنقاذه. ما ألطفها في الوقت المناسب! إنّ جاذبيتها تروق لكل من يراها. ومعروف أن حياة بول وجين لا تكاد تخلو من حيوانات تصاحبهما أينما ارتحلا. وقد يجتمع عندهما كل من قط، وقُطيْطة، و بطّة، وببغاء وقِطين وحشيين... الخ. كم يتذكر بول، بأسف، عندما افترس أحد قطيه الوحشيين حمامة فمزقت عظامها أحشاءه!

الجنس، بالنسبة لبول، شيء ثانوي. ليس أساسيا في حياته، إنما هو لينجزه في كتاباته ولا يوظفه إطلاقا كإغراء. و معلوم أن بول، منذ أن تعرّف الى الفتاة الانجليزية بيجي Peggy وهو في حدود ١٧ سنة من عمره، لم يبد أية ميول جنسية نحوها. لقد اكتفى بعلاقة أفلاطونية معها حتى لم يعد، خلال فترة، يعرف ما يفعله بدونها. كانت فتاة جريئة وطائشة، وحتىّ لا يتورط في علاقة جنسية معها هجرها. وأيضا فيما يقرأه ينفر من الكتابات الجنسية. سألته مرة عن كتابات هنري ميللر فقال: «إنه كاتب مُجيد، لكنه مملّ عندما يطيل في وصف المشاهد الجنسية. إنّ أفضل كتاب له يعجبني هو عملاق ماروسيا Le colosse de Maroussi. عن أنايس نين قال: «آه، تلك المهووسة بالذبذبات الجنسية المكبوتة. إنني ألومها على احباطها جين عندما علّقت على روايتها (سيدتان رصينتان) بشكل سلبي وسيء.»

إنّ من يقرأ السيرة الذاتية لبول بوولز« دون توقف Without Stopping» سيدرك أنه كان يدقق ويخطط لكل ما يعيشه. وفي هذا لا يختلف كثيرا عن ترومان كبوتي إلاّ أنّ ترومان وسواسي أكثر من اللازم؛ تنقصه اللياقة وروح المغامرة، مهووس بالتبجح وهستيري مثل تينسي وليامز. غير أنّ "دون توقف" بول لا يقنعنا كثيرا، رغم أنه يقول في رسالة الى أليك فرانـس France Alec (طنجة ١٣ . ٦ . ٧٣) : «في السيرة الذاتية، ليس هناك أدنى نية في التخفي. » إنها سيرة ذاتية بمثابة فهرس للأسماء، والزيارات، والرحلات ما عدا الفصول التي يخصصها لطفولته وعائلته: إذ حياته التي يرويها مليئة بالتوقفات، و الرتابات والملالات! ولكنه هو نفسه لم يكن راغبا في كتابتها، إلاّ أنه قد أُلِحّ عليه أن يكتبها على هواه. ولقد وجد مبررا أيضا لكتابتها؛ لأنه كان في حاجة الى تغطية تكاليف مرض جيـن في LA clínica de REPOSO de los ANGEL فـي مالقـة.

لم يبق عندي سوى ثلاثة دراهم، عندما خرجت من حانة مونوكل. أكثر من الثالثة صباحا. سأتناول قهوة بالحليب في البيلو EL PILO. الجيلالي الغرباوي جالس في رحبة المقهى. عرفته في أواسط الستينات. يزور طنجة بين فترة وأخرى حاملا معه رسوما ينجزها على الكرتون. حينما تنفد نقوده يعطيني أحدها لأبيعه له كيما يغطي مصاريفه اليومية. مائة وخمسون درهما أو مائتان لكـل رسـم. ناداني:

– إيه! تعال.

جلست ثم قال بصوت جاد:

– أتعرف ماذا حدث لي منذ لحظات؟

– ماذا حدث؟

– صدقني أو لا تصدق. لقد كنت قبل لحظات في مولاي ادريس زرهون. حملت حقيبتيّ الاثنتين ومشيت الى فاس. فجأة، رأيت شبحين يتبعانني. تركت لهما الحقيبتين وجريت. لست أدري كيف وجدت نفسي جالسا هنا!

حدقّ فيّ ثم أضاف:

– كل ثروتي كانت موجودة في الحقيبتين: لوحاتي، أوراقي الشخصية، ملابسي ونقودي.

– للأسف!

– هل معك نقود؟

– حالتي ضعيفة.

– هات ما عندك.

أعطيته الدراهم الثلاثة دون تردد قبل أن أصير شبحه الثالث ودخلت المقهى لأتناول قهوة بالحليب، وخبزا محمصا بالزبدة دَيْنا.

في اليوم التالي، مساء، كان يتعشى في مطعم زاكورة في منتهى أناقتـه وأزهاها. استضافني للعشاء معه. أهو حقا الغرباوي! لم يكن هو الذي رأيته ليلة البارحة في رحبة مقهى البيلو. كانت تلك آخر مرة أراه فيها حتى علمت، بعد أكثر من سنة، أنه غادر المغرب نهائيا، بعدما باع كل لوحاته، وأدوات رسمه لأحد الأثرياء المعجبين بفنه ليموت في باريس، في ليلة جدّ باردة، فوق أحد مقاعد حديقة شان دو مارس في

أبريل العام ١٩٧١. كل شيء سريالي ومحتمل في طنجة.

ليس للموت جغرافية إذا متنا صدفة. مثل هذه المرة الأخيرة حدثت لي أكثر من مرة: جنيه بحث عني في مطعم-بار نيجريسكو BAR NEGRESCO فلم يجدني. تغدى فيه وترك لي عند الخادم -مازحا- كأس نبيذ وجريدة فرانس سوار ثم مات بعد شهور. تعشيت مع تينسي في الباراد ثم حملنا معنا ما تَبَقّى في زجاجة النبيذ لنشربه في مسبح فندق المنزه. اقترح عليّ أن نجلس في رحبة مقهى باريس لنشرب شيئا. وقبل مجيء النادل جلس جنب تينسي شاب يسيل الدم من رأسه على وجهه فهرب تينسي حاملا معه نصف زجاجة النبيذ دون أن نتوادع ولم أره مرة أخرى حتى مات مختنقا في فندق بعد سنوات في "غموض"، حسب رواية بول بوولز.

كان الغرباوي متذمرا من الوسط الفني في أواخر حياته في المغرب. إنّ الجمهور المغربي لم يكن مهيئا بعد ليتقبل فنه التجريدي (وصنوه أحمد الشرقاوي). كان موقف الغرباوي من الرسم يبدو غريبا هنا في المغرب، أما في الخارج فقد كان يمكن له أن ينتج في عمله بأكثر حرية لأنّ هناك من يتفهم أعماله ويرحب بها: متاحف، نقاد ومعارض... وهنا كان الرسم غائبا أو محرّما إن أنجزه مسلم.

يرى الغرباوي أن الرسم، في زمنه، كان يعاني تخلفا كبيرا في المغرب، بل يكاد يكون منعدما في الثقافة المغربية الفنية، الفن التجريدي طبعا. وما كان موجودا منه لم يكن إلاّ في بدايته، وماتبنته البعثات الأجنبية، في الجنوب والشمال، هو لإرضاء فقط ذوق فئة ساذجة مخيلتها

محشوة بالغرائبي والفانتازي.

إن الغرباوي هو الطائر الذي لا أرجل له، ضئيل الجسم، كبير الجناحين، ومثيله الطائر الأزرق الآخرمحمد خير الدين[٣٤]، وهما معا يكادان يتقاربان في السلوك، والأهواء والاجهاز على المألوف في الابداع.

يقول بوولز، في سيرته الذاتية: "ينبغي اليوم أن يكون الانسان عديم الاحساس كيما يستطيع الاستمرار في كونه فنانا." لكن هذا لا ينطبق، مثلا، على الغرباوي، وخير الدين الآتي من (أزرو – واظو) : صخرة النسيم (حيث يجلس أهل القرية للحديث أيام القيظ). كلاهما عاش صامدا ضدّ العاصفة الهوجاء.

ولد الغرباوي العام ١٩٣٠ في (جَرف المِلْح – الغرب. أعماله اليوم موجودة معظمها في المغرب لدى المعجبين به من الاثرياء في منازلهم، وفي بعض متاحف أوروبا، والولايات المتحدة وحيث لاندري!

بدأ تقزز بوولز من الأجسام البشرية العارية عندما كان يدرس الرسم وهو في السادسة عشرة من عمره. وبلغ السابعة عشرة ولم يكن يفرق بعد بين اختلاف الذكر و الأنثى جسديا. ولقد بدا له ذلك مدهشا. لماذا هذا الفارق؟ هكذا تساءل... ! لكن الأغرب من هذا التساؤل هو لماذا لم يرق له أن يرسم الجسد البشري إلاّ باللون الأزرق؟ أكان يعتقد أنه نزل من السماء مصبوغا بهذااللون؟

إنّ كل شيء جاءه متأخرا في حياته: فحتىّ شهرته مبدعا أدبيا عالميا لم تأته إلاّ بعد الستين. إنه اليوم ينطبق عليه المثل: «يوم عشنا مُتنا.»

وبين الوردة وساقها الشائكة، مارس بول ما يمكن أن نتجاوز لنسميه الجنس (كما يعترف في سيرته الذاتية) مع هيرمينا Hermina (فتاة هنغارية) وسط نبات القُرّاص. وفي أحد فنادق باريس مرّ بتجربة جنسية مع فتاة أخرى باردة، سلبية، فكانت مُماثِلة للاولى وربما أكثر خيبة. ماذا يبقى من لذة الجنس والرغبة فيه إذن؟ وحتىّ الجنس مع الذكور لا نعرف عنه إلاّ أقلّه في حياته. ولكي ننصفه فينبغي أن نلغي اهتمامنا به في حياته، لانه هو نفسه يوافقنا على ذلك، وليس نادما على الاطلاق أنه لم يهتمّ به أساسا في حياته. لقد تأكد لنا أن الجنس النسوي لعبة خاسرة في حياته. أما تجاربه مع الجنس الذكري فتلك وردة نعرف لونها، وبداية رائحتها وصلت الى مشامنا بكاملها من تجربته مع بيللي هوبير Billy HUBERT، أحد أقاربه، الذي جاء الى باريس وأغوى بول بكرم باذخ (وكان بول معوزا) الى حدّ أنه أقنعه بالرجوع الى نيويورك "لأنّ والديه لن يعاتباه على هروبه، لكن بول ندم على عودته. واعترف أنه لم يكن قد نضج بعد ليقرر حياته دون أن يتدخل فيها الآخرون.

«إنّ بول، في شبابه، كانت له رشاقة متميزة ينجذب اليها الذكور والنساء الذكيات.» هكذا قال لي إدوار روديتي.

يكتب بول بوولز، في سيرته الذاتية: «الكتابة أهمّ من حياتي. لا أهمية لحياة الكاتب. إنّ عمق تفكيري في كتاباتي وموسيقاي.» لكن، رغم هذا التصريح، علينا أن نحذر من الروح الملفعة بالفن! إن هدف الفن هو أن يصبح سيد الواقع: أن يكشف عن الواقع الخفي، غير أن بوولز راهن على الكثير ولم يحقق إلاّ القليل في مسعاه لكي يجعل من المرئي سِحرا.

إنّ بول يأخذ دائما حذره البالغ تجاه الآخرين والأشياء،لكن يلطفه بنوع من التفكه. ولكي يحقق شبه انغلاق حلزوني على نفسه حذف التليفون. حتىّ السفر وجد له مبررا عندما يقول: «أعرف لماذا لم أعد أسافر؛ لأنه لم تعد هناك بواخر.»

قد يكون له عذره لأنه كان يسافر ومعه ثلاثون حقيبة ودولابان كبيـران. ويلقبه بعضهم بالداندي العاشق القديم للبواخر Paquebots

هذه الحياة شبه القوقعة، السابتة، بدأ يمارسها في طنجة أواخر الخمسينات؛ لأنه «عندما يغادر المرء غرفته تبدأ كل متاعب العالم» كما يقول باسكال Pascal. أو لأنه «في النهاية نخسر هُوَيّتنا بالعيش في غرف الفندق» كما تقول السيدة رينمانطل Mrs Rainmantle الى السيدة سلاد Slade في «الدَغَل الأحمر.» وبسبب مرضه، في السنوات الأخيرة، يكاد يعيش في ركن من الغرفة. وليس من عادته، أيضا، أن يدقّ على باب أحد. إنه شبيه بالفيلسوف سانتايانا: فإذا لم يسأل عنه أحد فلا يسأل هو أيضا عن أحد.

بعد الاستقلال، صار بول يعتبر المقاهي، والحانات والمطاعم في المغرب مَثابة مخافر للشرطة السرية و المخابرات. ولهذا يكتفي بأن يذهب بعد الظهر، صحبة سائقه عبد الواحد الى البريد، و «السوق الجديدة» في شارع فاس ليشم رائحة الزهور ممزوجة برائحة اللحوم، والخضر، والفواكه ويداعب القطط الصغيرة المهجورة. بول يحب القطط ويكره الكلاب: "مكانها البادية وليس المدينة. إنها تهاجم، أما القط، رغم كبريائه، فهو وديع." هكذا قال لي يوما. لكن، بعد

دخول جين «عيادة الراحة للملائكة» في مالقة، لم يعد يؤوي أيّ قط في منزله. كانت هناك قطة سوداء تأتي، في وقت معيّن، فيطعمها الحليب قدام باب شقته. وعندما لم أعد أجد الصحن أمام الباب، ولم أعد أراها في مدخل العمارة مسترخية سألته عنها فأجابني بصوت آسف:

– ماتت المسكينة. كانت قطة لطيفة رغم أنها متشردة.

إن بول ليس مثل جاك كرواك الذي يعتبر أن موت قط كان دائما طالع شؤم (طيرة).

وجدته ظُهرا في سوق شارع فاس يداعب قطة صغيرة. سألته عن رأيه في حرب الخليج الساخنة فأجابني بهدوئه المعهود:

– إنّ ملاعبة هذه القطيطة الآن أفضل، في رأيي، من كل كلام عن هذه الحرب القذرة.

لكن، مع ذلك، فإنّ بول له رأيه فيها: « لقد تمّ قصف العراق بشكل عنيف جدا. ولم يكن من الضروري الوصول الى هذا الحدّ، لكن السيد بوش أراد أن يبين بأنه قويّ. إنني مقتنع بأنّ الاميركيين كانوا مرتاحين. لقد قالوا عندها: إنّ أهوال حرب الفيتنام قد امحت. وها نحن قد استرجعنا قوتنا وعظمتنا. وهذا أمر سخيف. أما في طنجة فلم يعد هناك سواح. وتوصل الاميركيون بدعوة من حكومتهم ليغادروا المغرب. وفعلا فإنّ جميع الذين كانون يشتغلون هنا قد تمّ ترحيلهم نحو واشنطن. لم يعد هناك سياح. لقد أصبحت الشوارع مقفرة. حتىّ المغاربة

أنفسهم لم يعودوا يخرجون الى الشوارع[٣٥]. لقد دام هذا الوضع حوالي شهر. وبعد ذلك عادت الامور الى طبيعتها. لم يحدث أيّ شيءآخر. والاميركيون ومن المحتمل أيضا الاوروبيون اعتقدوا أنّ الناس هنا كانوا غاضبين حيث تظاهروا في الشوارع، لكن لم يقع هذا إلاّ مرة واحدة في اليوم الاول لَـمّا علموا بأنّ هيئة الامم المتحدة قد قصفت العراق، لقد أثار هذا حفيظتهم لأنهم مسلمون. فهناك مسيحيون يقتلون مسلمين، وبالطبع فإنّ مثل هذا الامرلم يكن يعجبهم، لكنهم نسوا أنّ ملكهم قد أرسل جنودا من أجل قتل المسلمين. في النهاية، نسي الجميع كل هذا، و أنه لأمر طيب. إنني أكره الحرب، وأعتقد بأنّ هناك قليلا جدا من أناس يحبونها. فالحرب تعطيهم الشعور بالقوة والعظمة، وفي العمق هو ما يبحثون عنه. نحن لا نخاف الذين نعرفهم، ولا نشعر بالتهديد سوى من الاشخاص أو الاشياء التي نخاف منها. (المعرفة) فقط هي التي يمكنها الانتصار على الخوف. [٣٦]

كانت جين، حينما تتوقف عن الكتابة الأدبية (قصصها القصيرة) تجد تعويضا ومتنفسا كبيرا عنها في كتابة رسائل طويلة الى بول والى أصدقائها. تتحدث فيها عن أبسط التفاصيل اليومية طردا لملالتها، ووحدتها القاتلة، أحيانا، أو لاستكشاف حياة المغاربة في محاولة تعلم لغتهم وتقاليدهم. وقبل أن تحب جين أحدا وتنصهر في هذا الجزءالافريقي، فقد كتبت من تريطوبس Treetops، في إحدى رسائلها لبول: «أتمنى، حقاً، العثور على امرأة حتىّ لا أبقى دائما

وحيدة في الليل. أنا متأكدة من أن الحياةالليلية العربية لا تهمني في شيء. وكما تعرف، فإنني لا أحب هذا الرهط مستساغا أو كائنا. ومثلما سبق لي أن قلت لك فإني أكـاد أكـون واحدة منهـم. طبعا، أنا لا أعرف شيئا عن الحاضرة العربية. إنني أرفض ترديد كلمة "عربي." وفي مناسبة أخرى قالت: "ببساطة، أفكر أنني أبدا لن يهمني أحد أن يكون لاتينيا، Latino عربيا أو ساميا.» هكذا كتبت مفضلة عليهم السكوتلانديين والإرلانديين.

بدءا من بداية الستينات، أخذت تنتابها نوبات تفقد خلالها جزءا كبيرا من ذاكرتها. البداية كانت منذ أن أصيبت بنوبة السكتة الدماغية Apoplexie عـام ٥٧. كما تقول في رسالتها الى ليبي هولمان LIBBY Holman من طنجة عام ٦٥. فقد كانت تتعشى مع صديقتها ماري، وفجأة نسيت اسمها العائلي (لكن سأتذكره، آووه، هاهو ذا: إنه كروفت بانك. Croft- Bank) وكذلك، في هذه الفترة، كانت رسائلها مليئة بالاخطاء: حرف أو أكثر من حرف محذوف في بعض الكلمات. وستتلقى، لعلاج كآبتها وتهدئتها، ٢٣ صدمة كهربائية بين انجلترا واسبانيا. في العام ١٩٦٦، بدأت جين تملي معظم رسائلها على صديقتها Carla Grissmann دون إمضاء غالبيتها. في أواسط أبريل من العام ١٩٦٧ أخذ بول جين الى مالقة حيث قبلوها في مستوصف للامراض العقلية للنساء. هناك عادت لتأخذ الصدمات الكهربائيـة. الرسائل المكتوبة من هناك كانت بخط اليد، غير منتظم، بالكاد تُفَكّ قراءته. وبداية من هذه المرحلة، فإن النّسْخَ لم يعد فقط

انحرافات في ضبط الكتابة نحويا وترقيما وانما كذلك صار شرح الكلمات المشطب عليها دون شرح.

إذا كانت جين تخشى دائما الانفاق، والجبال، وكل شاهق، والمصاعد، وانهيار سقف فوقها فإن بول يتمنى لو أنه يعيش في كهف مظلم. إن ماكان يريد تحقيقه – على طريقة الرومانسيين – هو الهروب من المجتمع المتمدن الى الحياة البدائية؛ إذ حينما نيأس من التحضر نتمنى حياة بدائية أو غجرية. إن له استقلاله الشخصي أما جين فتفتقده. إنها أيضا لاتستهويها المناظر الطبيعية لانها تخشاها خاصة الادغال. لقد كتب بول، في بطاقة بريدية، الى جرترود شتاين، أثناء شهر عسله، في أميركا الوسطى: «إنني متزوج شابة تكره الطبيعة، وهنا نحن محاطون بالبراكين، والزلازل والقرود...» ويكتب عن نفسه الى بيجي جلانفيل Peggy Granville من لشبونة (٢٥.٣.٥٨) : «أعرف جنوب البرتغال – مقاطعة ألغارف Algarve وهي جميلة. لكني لا أبحث عن الأشياء الجميلة.»

تقول جين لبول، في إحدى رسائلها: «أنت ستفعل ما كنت تفعله دائما، وكذلك هلفيتيا Helvetia (صديقتها الحميمة) لكن أنا ليس لديّ وجود مستقل.»

إنّ همّ جين الكبير هو عجزها عن الاستمرار في الكتابة. إنه الموت العقلي الذي كانت تخشاه. الامر هنا يختلف عن لورنس العرب الذي انقطع عن الكتابة لينتحر عقليا وصار عاديا حتىّ مات في حادثة سير راكباً دراجته النارية. كانت تستهويه المغامرة أكثر من

كتابة الشعر واستمرار عبقريته الجريئة التي أبان عنها في «أعمدة الحكمة السبعة[٣٧]. » أما رامبو فقد استبدل الشعر بالمغامرة المادية. وحين سئل يوما عما إذا كان مازال يكتب الشعر، وهو غارق في تجارة العبيد والسلاح، أجاب: «آه، الشعر!» لكنه كان قد بلغ نضجه الشعري دون أن يعرف. ربما كان سيدور في حلقة القمة الباردة لو أنه استمر يكتبه!

إن الكتابة أصبحت عبئا ثقيلا بالنسبة لجين: «ينبغي لي أن أكتب،لكنني عاجزة. » برّوز أيضا كان يخشى العجز عن الاستمرار في إنهاء روايته «الغداء العاري» عندما هزمه تعاطيه المخدرات بافراط في بداية يناير عام ٥٥. كان يخاف الحصار التام في استمرار الكتابة.

إن رامبو لم يرد أن يُنْزل الادب مطلقا الى الحياة، ولم يرد أن يُصعّد الحياة مطلقا الى الادب، إنما حاول أن يمزج بينهما قبل أن يتفرغ نهائيا الى هوس مغامرته سعيا لكي يصير مجهولا، لكن عبثا؛ إذ نبوءته كانت أكبر إلاّ من مناصريه، في زمنه، القلة – الصفوة التي استكبرته، وهي التي ولّدت أجيالا ممن يحيون ذكراه حتىّ اليوم. "الموت يُحيل الحياة الى مصير" كما يقول مارلو. [٣٨] لقد حقق ما فكر فيه: أسفاره من انفجار ما كتبه.

في الكتابة، كان طموح جين أكبر مما تستطيع انجازه، هي الموهوبة باكرا. ربما كان ينقصها شيء من المكر، هي البالغة الطيبة التي ساهمت في إخفاقها، أما بول فهو سيد الماكرين الامهر محصنا في قوقعته. أن تؤمن فهو شيء جيد، لكن أن تؤمن وتفهم فهو شيء

أجود، وجين كانت تؤمن بما لم تفهمه.

عاشت جين وهي مهددة دائما بالانسحاب من الكتابة كلما تفاقم عجزها في إنهاء ما تكتبه، لكن أيّ كتاب أو كتابة؟ هذا ما كان يعذبها. إنها تَعِدُ بكتاب دون أن تكون قد بدأت جملته الاولى. فهي إذا بدأت عملا كانت تمزق ما تنجزه منه متمثلة « كل شيء باطل وقبض الريح. » وحتىّ ما نشرته كان لايعني لها شيئا كبيرا إن لم تكن تتمنى محوه من حياتها. . كل شيء محتمل في حياة جين المضطربة، وأيضا في حياة بول؛ لان كليهما آمن أن العيش لا يُحتمل إذا لم يؤسْطِر المرء حياته. كان قد سبقهما الى هذه العقيدة من المهزلة البشرية سكوت فتجلرالد وزيلدا، لكن بول وجين لم يكونا استعراضيين وتهريجيين مثلهما.

تقول بياتريس بندار Beatrix Pendar عن جين: «في الاربعينات، كان كلّ المحيطين بها معجبين بترددها ولامبالاتها؛ لكن، للاسف، كانت قد كبرت ولم يعد يصدر عنها ما يروق. . . » أمّا غور فيدال Gore Vidal فيجد جين غير محتملة على الاطلاق مثلما أيضا كان يشاكس ترومان كابوتي لنفس السبب، وكان هذا مثابة أخ عزيز على جين. وكذلك جين كانت تكره غور فيدال عكس بول الذي كان يحبه كثيرا كما هي كراهية بونويل Buñuel لجالا Gala وانسجامه التام مع دالي.

عرفت بياتريس بندار عند بول. جدّ مهذبة، رقيقة وكريمة. تكتب أشعارا رومانطيقية لنفسها وتقرؤها على أصدقائها. كان لها

زمانها من الجمال، وملامحها مازالت شاهدة عليه. أغرقت نفسها في الكحول حتى بدأوا يسرقونها خارج منزلها وداخله. استضافتني مرارا في شقتها. كانت تقرأ عليّ أشعارها وكأس من الويسكي لايفارق يدها. نادراً ما قابلت امرأة في منتهى رقتها وطيبتها. كنت ألقاها في قاعة شاي مدام بورط Porte فنشرب معا حتى يغلبها السكر فأرافقها الى منزلها. قد ترغّبني في كأس أخرى عندها فلا أمانع. تعيش جدّ متوحدة، و لم أكن أنا أيضا أقلّ توحدا منها. أثناء قراءتها إحدى قصائدها فكرت أن الشعرله إخوته في أيّ مكان وزمان. فلا تأشيرة للدخول الى مملكة الشعر. إنه يؤازر الناس ويؤاخيهم أينما كانوا.

كانت جين تغار من علاقة بول مع أحمد اليعقوبي (١٩٣١– ٨٥) ، لكنها تكتم غيرتها، ثم هي تحب أن يكون بينها وبين بول العزيز غريم كعادتها، على غرار كيط وبورط وبينهما تانر Tuner دون أن يحتدّ التوتر كما في (الأبواب المقفلة) [٣٩]. إن بورط وكيط يحبان بعضهما كثيرا (مثل بول وجين) ولكنهما لا يستطيعان العيش معا في سعادة، لاينتظرهما سوى الفراغ والعدم. إنك لا تعرف متى تنفر منك جين ومتى تميل اليك. وعندما سألها بول عن رأيها في أحمد اليعقوبي أجابته بهدوء: « إن له ثقبين في مكان العينين! » ربما كانت في لحظة غضب مع نفسها أو مع الغير وليس أحمد اليعقوبي بالذات. ومعروف أنه كانت لها نزواتها. لم تكن شريرة على الاطلاق، حسب الذين عاشروها في الاميركيتين وهنا في المغرب. إنها تخلق حياتها كلها ولا تعيشها بالتقسيط: فإما كل شيء أو لا شيء. لا شيء ثابت في حياتها. كل ما

يُنجَز يستحق الدمار ليبدأ شيء ما حتىّ يكون أكبروأفضل. ما هو؟ هي نفسها لا تعرفه. إنها إلَّم تكن تريد الجواب فإنها لاترضى أن تدغدغ العاديين، السخفاء. كانت تعرف من تجيب. إنما الاكيد عندها هو أنّ ما هو موجود ينبغي أن يندثر ويزول لانه باطل... ! عبثا كان يهددها بول حينما كان يقول لها: «لا أريد أن أراك إذا أنت لم تشتغلي.» ولم تكن تشتغل في شيء. لقد كانت في يأسها دون عزاء، ولا جدوى ممن يؤازرها، تتحطم بما تفكر فيه. تستعذب كسلها الألـَذ المرغمة عليه. لا أحد يقدر أن يلومها. إنه اختيارها. ما هو؟ فقط أنها تُمنّي نفسها بانجاز ما لم تعد قادرة عليه. هي والكتابة كلتاهما ضائعة في الأخرى. ظلت تصارع من أجل تحقيق انعكاس الإبداع على الحياة: أن لا تكون الحياة كما هي وإنما كما نريد لها نحن أن تكون. ربما ما كان يحزّ في نفسها هو أنها لم تحقق، في النثر، ما حققه رامبو في الشعر قبـل أن يهجره الى ذروة انتحـارصمتـه البطولي الجميل... !

«الاطفال الذين لم يولدوا بعدُ هُمْ أكثر سعادة.» هكذا قالت لبول. وكانت تعتبر نفسها مَثابة أمّ حنون لصديقتها الحميمة "الشريفة"، وأنها ابنتها هي التي لن يكون لها أبدا أبناء: «لماذا نأتي دائما بالاولاد الى هذا العالم؟» هذا ما تحب أن تقوله ساخرة من الوجود كله.

عندما تتوتر علاقاتها مع أصدقائها، ومعارفها فإنها تُعَزّي نفسها: «إننا لا نعيـش إلاّ مـع العابريـن.» هذا ماقالته هازئة للورنس ستيورت. كان صعبا على جين أن تقرر شيئاما وتحسم: «لم أعش بعد يوما واحدا سعيدا في حياتي، لكني لم أتخلّ بحثا عن السعادة.» وكذلك أشخاص أعمالها. أما بول فيقودهم الى الدمار التام أو الى نهاية أليمة في أكثرية

أعماله. إنّ الجريمة الوحشية دائما حاضرة فيها؛ لأنه أسس مذهبه على بغض الانسان لأخيه الانسان. وأية علاقة مع الآخر قائمة على الخداع، والتربص، والاحتيال والاغتيال. جين كانت أكثر منه رحمة بأشخاص أعمالها. إنهم دائما يأملون أن يسعدوا يوما ما، أما بول فقد أغرق نفسه في العدمية: لا أمل هناك! ولقد كافح هو أيضا كثيرا لتحقيق سعادته من خلال الكتابة. إنه لم ينس نصيحة آرون كوبلاند. وظلت تصاحبه أينما كان: «إذا أنت لم تشتغل في العشرين فلا أحد سيحبك في الثلاثين.» وهذا الكفاح كان مصحوبا أيضا بما يقوله بول عن نفسه: «لنا شعور بذنب اللص، لكن ليس دون غنيمة.» لكأنّ جمجمة يورك Yorik لا تفارق خياله. العدمية تتجذر في بول كما هو النخاع في العظام. لا ينجو معظم أشخاص رواياته وقصصه من الطوفان. إن بورط Port، مثلا، في السماء الواقية، كان من سعادته أن يتوغل في الصحراء حتى لا يترك وراءه أثرا؛ لان العاصفة الرملية واعدة دوماً بمحو الآثار. إنه الارتماء في العدمية. وبول يعرف جيدا أن: "الإنسان مكروه في الصحراء.. يُلاحَظ هذا في السماء، في الصخور وفي الهواء" كما يكتب الى بيجي كلانفيل هايكس Hicks - Peggy glanville. وفي قصة مشهد بعيد يُقطع لسان بطلها ويُرْغَم على القيام بمشهد تهريجي، علما أنه أستاذ اللسنيات. إنه مشهد بدائي في منتهى الوحشية. وبطلا قصتيه «طريدة هشة» ، و «علاّ ل» لا ينجوان من هذا المصير السادي: الأول يقطعون له عضوه التناسلي و يُغرز له في سُرّته، والثاني يفجرون رأسه بفأس. إن بول بوولز يعتقد أنه،

في الكتابة، ينبغي أن تكون هناك معادلة: أن يتحول الواقع الى خيال، و الخيال الى واقع وهو الاقوى. في قصته "كلمات مشؤومة" Malvenus Paroles إذا كان كاسطور Castor (بطل الغثيان لسارتر) يقول: «أنا صامد في الحياة» فإنّ بول بوولز يقول: « إنّ حياتي بعد مماتي. » لكن في كتابه يومية طنجة Journal Tangerois (٨٩ ١٠٩٨٧) يتراجع عن هذا الخلود حين يقول: « هذا التكهن مشكوك فيه. إنّ الرغبة في أن يترك المرء أثرا وراءه تبدو عبثا حتىّ ولو نجح الجنس البشري في الإبقاء على حياته خلال قرن إضافي. هذا إذا وُجِدَ من يستطيع القراءة. » لقد يئس بول من معنى: "الحيوية هي اللذة الابدية" كما يقول وليام بليك.

يوم الاحـــد

ذهبنا الى "الرميلات." كان هو اليوم الوحيد الذي اشتغلنا فيه، بول وأنا، خارج منزله. كان في حاجة الى فيتامين الشمس كما قال. يوم ربيعي. كنا نترجم الخبز الحافي. جلسنا في مكان مُشَجّر، مُعْشَوشَب ومفروش بالزهور الوحشية أغلبها بنفسجي. عائلات مغربية وأجنبية تستعيد مرح طفولتها مع الاطفال. كنا بعيدين عن ملاعبهم وصراخهم. ذكرني نفور بوولز من صراخهم بسيمون دو بوفوار. كلاهما يحبهم لكن من بعيد.

كان قـد سألني صحافي فـي ملتقى جائـزة جرينزاني كافـوز Cavour Premio Grinzani فـي تورينو (١٥. ٥. ٩٣) :

– ما رأيـك فـي الزواج وإنجـاب الاطفال والحـب؟

– لست ضد مؤسسة الزواج، لكني لا أحتمل تأسيس أسرة. أما الاطفال فهم موجودون أينما كانوا دون أن نلح على أن يكونوا من صلبك أو صلبي بالذات. لقد أحببت عاهرة ففشلت، وحب عاهرة قاس وأحيانا قاتل وأنا أحب حياتي. ربما عواطفي لم تعد تكفيني سوى لنفسي.

إن بول بوولز له اليوم حساسية بالغة تجاه الشمس: هو الذي استمتع بشموس الصحاري، والمناخات الاستوائية، في زمن بعيد. إنه لم يعد يسبح في البحر منذ سنوات طويلة رغم أنه محاط ببعض الشواطيء النقية والجميلة. لم يعد يستنسم (من النسيم) إلاّ رائحة اليود عندما يتجول، في سيارته، عبر منار "رأس اسبارطيل Spartel Cap. " إن مرضه جعل أقرب الاشياء اليه أبعدها عنه. هناك عذر آخر: فقد صار جلده يحترق وينسلخ بحساسية سريعة أكثر من السابق، إذا هو تعرّى في الشمس التي كانت إلاهته في زمن ما. لم يستأثر بها بل قاد اليها من أحب وكره من أبطال قصصه وروراياته ورفقاء أسفاره. بول اليوم فقد مناعته في كثير من الاشياء. إنه رأى كثيرا، وملّ أو عجز عن أن يرى أكثر مما رأى. لقد أصيب بالتخمة من كل شيء. لابد أن يكون شيئا جدّ مُغْرٍ وسحريّ حتىّ يشتاق اليه. لكن زمن السحر قتله التضخم البشري، الحروب، الافلاس الاقتصادي وانهيار القيم الاجتماعية والقيادات المعتدلة. ثم لم يعد هناك سفر بالبواخر.

٣.٥.١٩٩٤

زرت بول، صحبة روبيرطو دي هولاندا حوالي التاسعة مساء. كان بول قد انتهى من عشائه. سألته:

– سنيور بول، كيف الحال؟

– ها أنا وحيد.

– لكن، في الوحدة، الانسان إما أن يكون عبقريا أوغبيا.

ضحك بتعب وقال:

– ولماذا ليس هما معا!؟

٨.٥.١٩٩٤

هذا الصباح سيسافر بول الى باريس ثم الى أتلانتا لتُجرى له عملية لإزالة ورم سرطانيّ يمتدّ من الأنف الى الصدغ. فكرت: في النهاية الكل يخشى الموت ماعدا كلبي جوبا.

ربيع ١٩٧٢

كنا في الرميلات. فجأة أشرت الى آل جيروفي: إزابيل وصِهْرَتِها إيفون Ivonne:

– سأذهب للسلام عليهما.

أوقفني بانفعال رقيق:

– أرجو ألا تفعل ذلك. إن الناس يهربون من المدينة لكي يرتاحوا من الذين يعرفونهم فيها.

فكرت: إنه على حق. ينبغي أن نكون بدويين في البْادية، ومتحضرين في الحاضرة. لم أتخلص بعد من بدويتي وأنا في المدينة. بلعت ريقي. إني وريث عاداتنا: فنحن ما أن نتراءى حتى نسارع الى التعانق داخل المدينة وخارجهاعند المجيء والذهاب أكثر من مرة في اليوم الواحد.

برد وشمس خفيفان. سائق بول، عبد الواحد، يتجول بعيدا عنا. يظهر ويختفي وأنا وبول نترجم صفحات من الخبز الحافي. سألني مرة عبد الواحد:

– هل ما تحكيه أنت أو المرابط لبول ويترجمه الى الانجليزية يهم كثيرا الاجانب؟

– أنا لا أحكي فقط، أنا أكتب الحكاية لكل من يقرأ.

– لا أفهم جيدا.

– وأنا لا أعرف كيف أشرح لك.

– لكن المرابط لا يكتب، إنه فقط يحكي.

– لكن بول يكتب له. ولابد أن تختلف الحكاية عند كتابتها.

لدى عودتنا اشترى عبد الواحد لبول بيضا بلديا من طفل جبلي واقف في حاشية الطريق. شربنا الشاي في قهوة صغيرة (صاحبها يعرف بول قديما). روادها من مدخني الكيف والماهرين في الحكي عن ماضيهم الجميل. طنجة اليوم لا توحي لهم إلاّ بالحسرة والعزلة.

١٧. ١. ١٩٩٣

النكاح، بالنسبة لبول، جهد يبذله البشر باطلا ومثله هكذا كان يعتقد تولستوي. النكاح ليس صالحا إلاّ للنسل. لكن بول ينفي حتىّ الإنسال، إذ يكفي الانسان أن يتخلص من عبث وجوده ولو كان في الشاذ. إذا وُجدنا فما علينا إلاّ أن نكافح حياتنا لكي نجد الخلاص من هذاالوجود الموبوء. هنا يتجلّ منتهى عدميته! لأنه إذا كان هناك خطأ في عدم تعادل فيضنا فما نُلام في مشكلة فهم بعضنا البعض.

زرت اليوم بوولز صحبة هانس والروبيو. كان بول متعبا جدا في فراشه. في وسط الغرفة طِبْلَة فوقها ركام كبير من الأدوية. ساعده عبد الوهاب (شاب أراه عنده لاول مرة) على الاستواء جالسا فوق الفراش. وعندما قدمت الروبيو لبول على أنه من تافراوت هلّل:

– أوه! لقد كنت هناك في الاربعينات. أعجبني كثيرا سوقها كل يوم الاربعاء، والجبل المطلّ عليها.

قال الروبيو:

– والصخرة التي تشبه قمتها قُبَّعةَ نابوليون.

قال بول:

– في كل ليلة كانت الثعالب تهاجم الكلاب الشاردة. الثعالب هي المنتصرة دائما والكلاب تفرّ مُئِنَّة عاوية. (يقلدها) : عاو... عاووو... أما أزالت هناك الثعالب؟

قال الروبيو:

– أبغوغن؟ (نطق بالسوسية) نعم. لكن ليس كما من قبل. هناك بعضها في الجبال البعيدة عن القرى، غير أنها لاتقترب منها. ما يكثر الآن، في تافراوت، هو (بوتكانت Boutagant) الخنزير البري، (أنزيط وتاروشت) : السنجاب والظَربان.

قال بول، بصوته الواهن، وقد بدأ يعتدل وينتشي في فرّاشه:

– العالم تغير كثيرا في كل مكان.

بدأت أعرق. الخشب يطقطق وشعلة هائلة في المَدخنة. بول قد يستدفيء بالنار حتي في عزّ الصيف. وإذا سألته يجيبك: "أنا بردان." لم أسمعه أبدا يشكو من الحرارة في منزله أو خارجه. أمام المَدخنة صفّ من الزجاجات البلاستيكية ملأى بالماء. لعلها كانت هناك لامتصاص الرطوبة. أراد هانس أن يأخذ صورا لبول، لكنه اعتذر لأنّ حالته الصحية لم تكن تسمح له بذلك. ذاكرته مازالت قوية، عيناه حيتين ومشرقتين. فقطّ سمعه ضعيف منذ أن عرفته في بداية السبعينات. محوت من ذهني نكتة المتظاهر بأنه لا يسمع. إنّ بوولز حقا لم يعد يسمع بوضوح. عندما خرجنا قال لي الروبيو:

– عجيب، هذا الرجل!

– لماذا؟

– لأنه ما زال يتذكر كل شيء منذ أكثر من خمسين سنة. لقد نسي شيئا مُهماً هو أن في تافراوت صخرة أخرى رأسها يشبه رأس أسد.

قلت:

– ربما لم يزرها.

قال بانفعال، كعادته:

– مستحيل آلسي محمد. إن كل السياح الذين يزورون تافراوت يعرفون صخرة رأس الأسد.

قلت مازحا:

– أنا رأيي أن رأس الاسد هو الذي يشبه رأس الصخرة. إن بول بوولز لا يسيح مثل الآخرين.

– وماذا هو إذن؟

– قد لا يعرف ما يعرفه الآخرون، وقد يعرف ما يعرفه الآخرون أو أكثر.

قال بحيرة:

– أنتم الكتاب غامضون.

سألني هانس عمّا نتحدث.

– عن صخرة يعرفها كل السياح الذين يزورون تافراوت ولا يعرفها بول بوولز أو نسيها.

– عرفها أو لم يعرفها فهي مجرد صخرة.

قال الروبيو بانفعال:

– كلاّ يا مسيو هانس. إنها صخرة مهمة. كل من يراها يتعجب من شكلها.

ضحك هانس ولم يضف شيئا.

٦. ٦. ١٩٩٣

ترددت في الدخول الى حانة "كوسموبوليتا Cosmopolita(٤٠)" لأنها صغيرة مثل حانة "ثقب في الحائط."(٤١)" يكفي ستة أو سبعة أشخاص فإذا هي ملأى. لم تكن فرجيني قد دخلتها معي من قبل. أغريتها فوافقت. إنها دائما تغامر أكثر من سنها (١٨ سنة). التمسماني كان هناك في ركن مثل لقلق مقدس. وديع. أمامه زجاجة نبيذ صغيرة. يبدو أن الكمية التي شربها قبل مجيئنا قد تَجَمَّع لونها في وجهه الذي تكَرَّزَ (من الكرز). شارد. رحّب بنا. تيقظ. بعد نخبين أعددناه، فرجيني Virginie وأنا، الى ذكرياته مع بوولز وجين والجماعة: براين جيسن، تينسي وليامز، وليام برّوز، ترومان كبوتي وآخرين. صارحته أني أكتب مذكراتي مع بوولز وثلته. صَمَتَ و شَرَد. لم أخرجه من أحلام يقظته إلاّ عندما أحسست أنه مستعد أن يتحدث لي عن هؤلاء وغيرهم. أخذ يتكلم بالانجليزية حتىّ تفهم فرجيني: « بول، جين، أحمد اليعقوبي والمرابط. أوه! تلك كانت حياة أخرى. » رفع كأسه الى فمه. تمهل قبل أن يفرغه كله ببطء. يقاوم تعبه بلياقة وهو يتذكر. فكرت: إنه تَربّى جيدا. لم يفسده التحضر الزائف الذي انخرط فيه صدفة. يسكن في قرية "برييش." استضافنا أنا وفرجيني. أجلنّا الدعوة. تلاطف معها الى حدّ الابوة. وعندما سألته فجأة أهو حقا قتل بول قط جين حيث دفعه من على حافة نافذة شقته في الطابق الرابع أجابني بحدة:

– أبدا لا. بول قد يؤذي بعض الناس وأشياء أخرى في كتبه،

حسبما سمعت، لكنه جدّ إنساني في الحياة الواقعية. خيال الكتابة شيء آخر لانحاسبه عليه لانه حرّ في خياله.

- العربي اليعقوبي قال لي ذلك.

- اسمع: العربي اليعقوبي صديقنا، لكن ما يقوله عن بول ليس صحيحا. إنه لايعرف بول كما أعرفه أنا. طبعا لم أقرأ كتبه رغم أني سمعت عنها الكثير. إنني أتكلم الانجليزية، ولكنني لا أقرأ بها الكتب إلاّ الرسائل.

سألته فرجينيا:

- أنت الذي تعرف أصدقاء بوولز القدماء، ما رأيك في جاك كرواك إذا كنت قد تعرفت إليه؟ (إنـها معجبة به حدّ العبادة)

شرب كأسه دفعة واحدة ثم أجاب:

- أوه! ذلك أيضا عرفته. إنه يشمّ الاشياء قبل لمسها. جدّ ذكيّ. كان يربك بول بتلقائيته عندما يتلكم. بول لم يكن يعتبره كاتبا جيدا عندما سألته عنه. كرواك كان، مثل جيله، شابا تمرد على أسرته ومجتمعه ولكنه لم ينضج. هكذا قال لي بول. أما أنا فقد أعجبت بشخصيته لانه بسيط ولا يعقد الامور. الامر يختلف مع برّوز مثلا: إنه دائما في قوقعته. (صمت لحظة وشرب كأسه) ما أحلى الكأس قبل الاخيرة! (نظر الى فرجينيا ثم إليّ) سأقول لكما شيئا قبل أن أنصرف: إن بول علمني أشياء كثيرة. له أهواؤه ولي أهوائي، لكني مازلت أحترمه. إنه يرى بعيدا، ورؤياه عن مستقبل الذين عاشروه صادقة.

سألته أنا:

– والمرابط ماذا تقول عنه اليوم بعد أن لم يعد يعاشر بول؟

– بول مثل جين، كلاهما لم يعرف كيف يختار أصدقاءه من المغاربة. سألته في زيارتي الاخيرة له منذ أسابيع:

– ألم يأت ولومرة واحدة منذ أن غادر؟

– لا. وليس ملزما أن يأتي لأنه لم يعد يشتغل عندي.

صباحا. ١١.٧. ١٩٩٥

التقيت المرابط قدام البنك الإسباني المغربي. كان ينتظر أحدا أو ينتظر نفسه. صحته منهارة. شاخ سيئا. تبادلنا كلمات عن صيف طنجة السياحي البائس هذا العام وأزمة الماء الذي بدأ الناس يسمونه "الذهب الأبيض" في المستقبل. ابتسامته شاحبة.

٦. – ٨ – ١٩٩٣

حوالَ الرابعة مساء مرّ بول بوولز قدام حانة نيجريسكو Negresco. سلمت عليه. صوته ضعيف. مريض. ذاهب الى طبيب الأسنان. يمشي مقوسا مائلا على جانبه الأيسر. عبد الواحد يمسكه من ذراعه الأيمن. رجعت الى طاولتي المطلة واجهتُها على الشارع لأشرب كأسي من الويسكي مفكرا في مساوىء الشيخوخة.

في عيد ميلاد بول العام ٩٤، الذي تعوّد المرا بط الاحتفال به في منزله على الطريقة المغربية التقليدية: (جوق موسيقى جيلالة وذَبحُ خروف)، رغم القطيعة بينهما، راح بول يعدد لروبيطو دي هولاندا

مزايا خدمة سائقه عبد الواحد له، وعنايته به وطبخه اللذيذ. وهنا قال له المرابط[42] الجالس قريبا منه:

– سنيور بول، (يتكلمان دائما بالاسبانية) ولكنني أيضا فعلت نفس الشيء معك، بل أكثر.

قال بول، ببروده الثلجي المعهود:

– لا أعتقد. أنت لم تفعل شيئا من أجلي. كنت فقط تشتغل عندي حينما تريد.

إنشغل المرابط مع نغم الموسيقيين فقال روبيرطو لبوولز:

– لكن كنتما صديقين حميمين.

– من؟ المرابط؟ ليس هذا صحيحا. إنه لم يكن أبدا صديقي!

– وماذا كان لك إذن؟

– كان مستخدما مثل الذين اشتغلوا عندي.

٢١ .٨٠ .١٩٩٥

زارتني إنكارنا Encarna مساء. جاءت مباشرة من زيارتها الى المرابط. منذ عام وهو يعاني من سرطان المعدة، حسبما قال لها. يفكر في بيع ضُيَّعَته لإجراء العملية في إسبانيا أو ألمانيا. وعندما أخبرته أنها ستزورني قال لها: «قولي له بأنني أموت شيئا فشيئا. إنه المكتوب.»

٢٣ .٨ .١٩٩٥

زارت إنكارنا بوولز هذا المساء. مازال يدخن سجائر سوداء

محشوة بالكيف. أخبرته عن تفاقم قرحة المرابط السرطانية. قال لها: «لم يعد يزورني. لا أعرف عنه شيئا. ليس هناك من هو على صلة بيننا. أعرف أنه سيعاني كثيرا لأنه كان دائما يعطي أهمية كبيرة لمظهره الجسدي.»

١١صباحا. (١١.١١.١٩٩٥)

زار روبيرطو دي هولاندا والمرابط بول من أجل طلب مساعدته لدفع تكاليف إجراء العملية الجراحية للمرابط في ألمانيا. مبدئيا وافق على دفع الفواتير. وعندما انصرف المرابط قال بول لروبيرطو: «كانت جين على حق حينما قالت لي يوما بأني دائما أخاف من أنّ المغاربة سيفطنون الى كوني أعرف أنهم يكذبون عليّ.»

بدءاً من عام ٥٠، بدأت جين تشعر بالعجز عن الكتابة. كتبت الى بول من باريس في نهاية يناير: «عندي إحساس قويّ أنه ينبغي لي التخلي عن الكتابة، إذا لم أستطع أن أصل الى أكثر مما وصلت اليه. لا أقدر أكثر على الاستمرار ضائعة في الطريق كما يحدث لي الآن.» أمّا بول فلم يفكر يوما في التخلي عن الكتابة. لقد أجرت جريدة ليبيراسيون الفرنسية استطلاعا نشرته في عددخاص في ربيع ٨٥. طرحت فيه على العديد من الكتاب، منهم بول بوولز، السؤال التالي: «لماذا تكتب؟» وأجاب بوولز: «أنا أكتب لأني أعيش في دنيا الأحياء.» لكن هناك سؤالا آخرلم يطرح عليه بعد وهو هل كان

سيصبح كاتبا، بالمفهوم العريض، لوأنه لم يستوطن طنجةكما كانت الاسكندرية للورنس داريل L. Durrell، ويسافر بعيدا عنها أو قريبا منها، عائدا دائما اليها؟ إنه يؤكد لاوطنيته حين صرّح لِعَمّار الجندي (مجلة الوسط ٣٢.٣.٩٢.) : «لست أميركيا أو مغربيا. أنا زائر للأرض. عليك أن تكون مسلما لكي تحيط بالمغرب تنتمي اليه.» ويقول بيتر أوين: «إن بول بوولز يعرف المغرب أفضل من المغاربة.»

في رسالة (١٩. ٢. ٤٧) الى شارل هنري فورد يعلل بول سبب بقائه في طنجة: «لم أكسب صداقات جديدة في الشهور القليلة التي قضيتها هنا. السبب هو أنه يراودني إحساس على أنني لست حقيقة في طنجة. إنها متغيرة بشكل فظيع ولا أحاول أن أتصور كيف كانت من قبل. إن جانبا مما كان، طبعا هو كما كنت أنا، وكما أنا أيضا تغيرت، يبدو عذابا غير ضروريّ للبحث عن ماض لم يترك أيَّ أثر. لقد تحققتُ من أنني دائما موجود أكثرُ في مكان ما حيث لم أكن أبدا فيه ولا أعرف شيئا حوله. مرة أخرى الى مكان ما. سواء إذا تغير أم لا فإنه ليس هو نفسه. أليس حقيقة؟ وأن لا يكون هو نفسه يعني، بطبيعة الحال، أنه غير حيّ. كل مكان يزوره امرء من جديد يظهر أنه قد فقد الحياة التي كانت تجعله موجودا في المرة الأولى التي رُؤي فيها. أكيدا لم أفكر أبدا في العودة الى طنجة لكي أبقى، لكن لسبب ما مكثت هنا، ربما لأنه يمكن للمرء الحصول على كل ما يريد والعيش رخيص والسفر محكوم بالمشقة.. تأشيرات للمغرب الاسباني وتجديد تأشيرات للمغرب

الفرنسي وناس سيئو الظن في القطار... وخاصة كوني حسما لا أملك طاقة لأعدّ الأمتعة وذهابي الى مكان آخر...»

١٦.٩. ١٩٩٤

قالت لي نتاليا هذا المساء عائدة من داكار: «عندما تصل الى إفريقيا تتمنى أن تكتب عنها كتابا، وبعد شهورتتمنى فقط أن تكتب عنها مقالة، وفي نهاية السنة تتمنى أن لا تكتب عنها شيئا.»

وقال يوما إيزنهاور للشعب الأميركي: "كل شيء يسير نحو الأفضل في أفضل العوالم."

بدأت جين تفكر في الانسحاب من الكتابة إذا هي لم تُنْهِ كتابها، لكن دائما أيّ كتاب؟ إنه مجرد وهم! لقد راحت تُمنيّ نفسها بإنجاز شيء لاوجود له. كانت موهوبة وماهرة، ولكن ينقصها الاستعداد والإرادة. أما بول فلم يكن يعد بشيء أكيد خلاف ترومان كبوتي الذي يخطط دائما لحياته الإدبية بدقة ويعرف تماما ماسيكتبه في المستقبل في فترة محددة. لكن بول كان يعمل باستمرار ولا يكاد ينقح مايكتبه (حسب زعمه) مثل جاك كرواك الذي يقول أيضا بأنه لا يكاد ينقح كتاباته،[٤٣] لكن ناشره مالكوم كوولي Malcom Cowley يُكَذِّب ما يقوله كرواك عن نفسه؛ لأنه ينقح كثيرا لكي يكون النص جيدا. لَكأنما كل تنقيح يُفْقِدُ العملَ بكارته التي يحبها كرواك وبوولز.

يتعمد بول تغييب السارد بصيغة المتكلم غيابا شِبْهَ كليّ في أعماله: «لا أريد أن أكون في أيّ منها. بقيت بعيدا عن كل قصصي، ما عدا ثلاث أو أربع منها أخذت شكل المونولوج أو الرسائل؛ إذ لم يكن هناك من سبيل للتنحي، بطبيعة الحال.» وبهذا يؤكد بوولز أنه ينبغي للمؤلف ألاّ يُقحِم حياته الشخصية في كتاباته: «إذا كانت لحياة المؤلف قيمة كبيرة فهذا معناه أن كتاباته لا تستحق الاهتمام. إ ن الحياة الشخصية هي أمور خاصة، ليس فيها ما يهم أيّ إنسان آخر. وماضي الشخصي لا يعني لي أنا شيئا. لقد كان مُحَمَّلا بالمعاني لحظة كنت أعيشه، أما الآن فلا أظنه ذا قيمة حتي بالنسبة لي.»

بين طنجة الامس، و طنجة اليوم، هناك الحالمون بها على الدوام، رغم خيبة أملهم فيها. وبول بوولز أكبرهم. إن الانتحار، بالنسبة للياباني، انتصار وليس انهزاما، لكن بول ينهزم دون أن يخوض معركة ما في شجاعة، معنويا وجسديا، عندما يقول: "لا شيء يُنْتَظر إلاّ الموت. مازلت أنتطرموتي في طنجة.هذا أكيد.» وأيضا: «الآن لا شيء يمكن أن يحدث ما عدا الذي يجب أن يحدث.» أو: «الإنسان ليس له سوى أن يموت Mann mus nur sterben» كما فكرت ديزي Daisy في مونولوجها. (٤٤)

إنّ أنتيوس، قبل أن يموت، صارع هرقل، أما بول فإنه استسلم للقدر ولم يعد ينتظر إلاّ ميتة جميلة، تليق بقَدْر كفاحه الابداعي.

لقد أحبت جين بوولز الناس أكثر مما أحبوها على مزاجها. لم تُكَذ ّب أحدا، ولم تستجدِ حياتها. الكلّ،بالنسبة لها، عاقل إ لاّ الأحمق،

لكن كم من عقلاء كانوا محيطين بها؟ رابطة الأخوة الانسانية؟ صداقات حقيقية؟ إشفاقات؟ إنها لم تصل الى التواصل الحقيقي مع الآخرين! كلّ ماكانت تحبه بعمق كان يهرب منها أو تخلق هي أسبابا لكي تبعده عنها حتىّ يتمّ لها العشق لا المنَال: التَماسّ لا المواجهة. ولاننس، هنا، عاملا أساسيا في عدم تواصلها وهو أن معظم اللصيقين بها من المغاربة هم من حضارة وهي من حضارة. لقد جاءت الى طنجة لكي تحب من أجل الحب فإذا بها ترى حبها يباع ويشترى في السمسرة. إنّ جين تحب الهارب منها: الممتنع...! تحب المتاهة لا الطريق المنير. وفي هذا تشترك مع بول في التيه اللانهائي أو تمَنّيٍّ الغيابِ التام. نوع من البوذية ممزوجة بالعدمية: الشقاء، اللااستمرارية وانعدام الذات.

في سنة ١٩٦٨ بلغت جين عجزها عن التعبير الأدبي. بول، أيضا، سيقلّ إبداعه (ربما بسبب تأثير مرضها عليه كما يرى بعض نقاده و أصدقائه) ويبدأ في تخصيص معظم أوقاته لنقل (وليس الترجمة) ما يحكيه له المرابط مسجلا بالدارجة المغربية وما يسعفه به إلمامه بالاسبانية. وكانت جين لا تحب هذا العمل الجديد الذي راح بول يخصص له معظم وقته بحماس. كانت تحب أن يكتب ما يفكر فيه هو. ربما لامارتين هو الذي قال: «مخلوق واحد تفتقده فإذا الكل خراب.» كان بول يتوقع حدوث مثل هذه المحنة والنهاية مع جين وربما منذ أن تعارفا. كلاهما قَدَرٌ في الآخر. لا هي ولا هو دون أن يعيُشا معا مثل كيط وبورط في «السماء الواقية.» لكن هذا لايعني أنه

نادم على عشرته معها. فقط أنه لم يكن ينتظر مأساة مرضها. لقد كانت مِهمازه وحافزه. أوحت له بالكثير من خلال التناقض الموجود بينهما: هي تلقائية، منطلقة على سجيتها، وهو منضبط ومُدَقِّق في حياته.

أظن أن بول، من خلال عشرتي معه، التي دامت حوالَ ربع قرن، لم يكن يعطي كبير اعتبار لما ينتجه هو بالذات أو لما ينتجه أحد ما. المهمّ هو أن تعمّ الجودة وتتكاثر: جودة النتاج ولا يهمّ من ينتج. كان يشجع هذا المبدأ. نادرا ما قابلت أحدا من المبدعي، كبارا وصغارا، يتخلّى، بتواضع، عن أناه الالاهية في الفن. هذا من ميزته. وحتى أسطورته ترك الناس يخلقونها على هواهم، وصارت تتغذى من نفسها، وتكبر كل يوم، ولم يكن عليه سوى أن يرعاها ويزكيها بتناقضاته الحربائية حتى لا يصدم معبوديتهم له!...

بول كان يكتب كيما يكافح ضد تفاهة العيش اليومي المعتاد حوله، وفي العالم، "حتّى لا نموت مثل الحيوانات" كما يقول همنغواي في هذا المعنى. هذا معقول، لكن ماذا نقول عن امرأة تتعرّى من الخلف لترينا صورة العالم، و ربما لترينا فقط، باستفزاز، مؤخرتها الخَنِزَة!؟ لا أعتقد أنها تفعل ذلك إلاّ لتقاوم العاصفة الثلجية. إنها ستحمل نزوتها ولن تبوح بها في هجمتها القادمة. إنها العاصفة الكاسحة المباغتة. لا تهبّ لِتُسامِح. ما نتركه من أثَر سامٍ لا يُعادِل جدالنا فيه. لمن إذن ذروة في الخلود؟ أحقا هو خالد من خلق فكرة الخلود؟

إن بوولز، اليوم، جدّ متحسر على ما حدث من تبدل في طنجة

(والعالم طبعا، رغم بعده عنه). في نظره لم يبق منها ثابتا إلاّ "الشرقي" (ريح الشرق). وهو في هذا لايجازف بفكرة تافهة. فطنجة اليوم استكان أهلها في بيوتهم الصغيرة بعدما باعوا أجمل أراضيهم بأبخس الأثمان ، الشرقي حاضر في طنجة موزعة ريحه على مدى شهرين في السنة كما يذكراسحاق لاريدو في كتابه مذكرات عجوزطنجي. «في الحقيقة، ما تَبَقَّى هنا هو الهواء والريح. عمليا، كل شيء اختفى مع انفجار فترة الحركة المسعورة التي بدأت قبل حرب ١٩٣٩ بقليل واستمرّت الى أن حدثت اضطرابات ٥٢ . » ثم يضيف: «حتّى في القصبة، ليس هناك إلاّ زقاق واحد لم يعان من تغيرات: إنّ مسلمي طنجة، مثل العالم كله، شغوفون بالبناء، وإعادة صياغة الأشكال. » [٤٥]

بول بوولز أحبّ المغرب، لكنه المغرب الذي جاءه العام ٣١. لم يحبّ أبدا المغاربة. وإذا لم يحبهم فلماذا سيبذلون هم أيضا أيّ مجهود ليحبوه؟ ومع ذلك فهو يتمسك ببقائه حين يقول لجيمس ليو هيرليهي James Leo Herlihi: «٤. ١٠. ٧٢. لكن، بنوع ما، لا أتصورني عابرا الأطلسي. على الأقلّ لا، حتى يطردوني من المغرب بالقوة. (في الواقع لا تعجبني الولايات المتحدة، لكن لا تقله لأحد.) » وهنا يشترك بول بو ولز في هذا الشعور مع هنري ميللر عندما يقول: «لكن العودة الى نيويورك، من ناحية أخرى، كانت مخيفة، فالمدينة التي أعرف كل شارع فيها، معرفتي لكتاب، وحيث أصدقائي الكثار، ظلت آخر مكان على وجه الأرض أودّ العودة اليه. إنني أفضل الموت علي قضاء بقية أيامي

مرغما في مسقط رأسي.»

في كتاب بوولز «أيام ورحلات» يكتب أيضا: «لأنّ هؤلاء المتزمتين العرب هم راسخون مقتنعون بأن الغربيين يزورون المغرب فقط لكي يسخروا من العادات وسلوك بلد متخلف.» هكذا كان يصرخ بول بوولزمن قبل، أما اليوم فلم يعد له سوى أن يحشرج. لقد قال بول بالطا Paul Balta(٤٦) : «بالأمس، كان العرب، في نظر الغرب، شجعانا، نبلاء، اليوم هم كسلاء، مخادعون، قساة، خبثاء...»

إنّ آفة بول بوولز هي أنه لا يميزّ كثيرا بين الماضي والحاضر، في حياة البلدان وشعوبها، رغم تجواله الكثير. أما المستقبل فهو منعدم بالنسبة له. بمعنى آخر، هو يريد أن يعيش في عالم بدائي ثابت و لكنه متحضر. كيف يمكن ذلك؟ إنه لا يعرف كيف يجيب رغم أنّ هذا الطرح من بين طروحاته عن البشرية.

هذا الهاجس، بين المتحضر والهمجي، شغل أيضا د. هـ.لورنس في معظم قصصه ورواياته، لكن أمله خاب عندما عاش في المكسيك وكتب أهمّ مؤلفاته: الثعبان ذو الريش Le serpent A plumes. وكذلك خابت طوباوية ألدوس هكسلي الذي كان يعاني من نفس الصراع الذي طرحه في روايته العالم الشجاع الجديد. Brave new world إنّ معظم كتابات بول بوولز تَنْصَبّ على الحنين الى العهد الاستعماري، في المغرب وغيره، على هواه الشخصي.

٢٢. ٧. ١٩٩٣

زرت بوولز صحبة بدرو Pedro (شاب إسباني رسام) . استقبلنا عبد الواحد. كان بول مستلقيا على فراشه مُتْعَبا قليلا. بعد تحيتنا له قال: «ها أنا هنا سجين. لا أنتظر سوى الموت.» فكرت: لكن ليْس بنفس القسوة التي أنهى بها حياة أشخاص قصصه ورواياته. عزمت على أن أبعث فيه بعض الحيوية فتجرأت:

– سنيور بول، ألا تعتقد أنك أشللت جين عندما كنت تنتج بحماس كبير في الموسيقى، وتكتب القصص بوفرة، ورحلاتك الموزعة في عدة كتب بينما كانت جين عاجزة عن إتمام أيّ نصّ بدأته؟

– تلك مشكلتها وليست مشكلتي. أنا لم أكن أتدخل في حياتها إلاّ في حدود تهمّ صحتها، وفقط عندما أرى أنه سيلحقها سوء هي غافلة عنه. لقدتركتها، في النهاية، تفعل ما تريد في حياتها. لم أُرغِمها أبدا على فعل شيء هوضدّ إرادتها.

– لكن، فيما يتعلق بدفنها، معروف أنك ضدّ أن تموت وتُدفَن مسيحـية.

– هذا صحيح. إن جين من أصل يهودي بلغاري كما هومعلوم. ما حدث هو أن الراهبات استطعن اقناعها بأنه يمكن لها أن تصير كاثوليكية. وتحت التأثير اليومي، على ضعفها الجسدي والمعنوي، انتصرت الراهبات واستسلمت هي. لكنني لا أظن أنها اعتنقت الكاثوليكية. كانت مغلوبة على أمرها. وكان لابدّ من أن أدافع عنها عند موتها. مرة زرتها فوجدت صليبا في عنقها. لم أقل شيئا لأخوات

الإحسان. ما كان يهمني هو أن يعنين بها. كنت سعيدا مع جين رغم ما يقوله الآخـرون.

كان بول، في هذه المرة، أكبر من الحزن الذي تعوّد أن يكتب عنه، لكني لم أتراجع عن أسئلتي.

– تقول جين إنه عندما تكون أنت زاخرا في إنجاز تآليفك الموسيقية والأدبية تحسّ هي بالتضاؤل والانطفاء، فإلى أيّ حدّ تشعر تجاهها إبداعيا ولا أقول نِداً للندّ. ؟

– كنت أقدر موهبتها. ولا أحسّ بأ يّ ذنب تجاه ما لم تستطع تحقيقه في كتابتها وحياتها. كانت مسؤولة عن نفسها وطموحاتها الأدبية. بعضها أنجزته، وبعضها ظل طموحا مستمرا وحلما. في رأيي أنه ينبغي أن يكون كل واحد مسؤولا عما ينجزه وما لا ينجزه. حقا ساعدتها على تصحيح بعض أخطائها النحوية، والترقيمات. . . لكن هذا لايعني شيئا كبيرا. إن هذا العمل كان يمكن أن يقوم به أيّ أستاذ لغة باحث. وهي أيضا كانت تعرف هذا وتقوله، إنما كانت تريد أن أتولاه أنا. إن جين وهبت لي كثيرا من الابتهاجات، وخلافاتنا كانت قليلة مهما ذاعت الشائعات عنا وبُولِغَ فيها، ولها موهبتها المتميزة في الكتابة. إنه من العبث أن يقارن أحد ما كتاباتها بما كنت أكتبه. كلانا كان يكتب على مزاجه. لم تكن هناك أية منافسة أو غيرة أدبية أواجتماعية بيننا. كنا نشترك في محبة بعض أصدقائنا على اختلاف أهوائهم ومبادئهم ومذاهبهم الفنية. «لا يمكن لك أن تقدمي مخطوطا فظيعا الى أحد!» هكذا صرخت في وجهها يوما. أما هي فقد

هزت كتفيها قائلة: «إذا عثرتُ على ناشر فإنه سيتكلف بتلك الأشياء (تعني ضبط الكتابة) . إنهم لا ينشرون كتابا لأنّ النحو سليم، أيها السيد المتشائم. » هكذا كانت تناديه بدعابة.

– سنيور بول، يقال أنه عندما ماتت جين لم تعد أنت تنتج أعمالا أدبية جيدة كما كنت تحبها. ومن أجل ذلك اتجهت الى نقل وصياغة بعض الحكايات لشبان مغاربة عاشروك.

– لا أنكر أن وجود جين معي كان حافزا كبيرا ومِهمازا لي على المضيّ في الكتابة، لكن عندما مرضتْ صار لي مسار آخر في الكتابة. ولست نادما. كانت تجربة أخرى. لقد فكرت جين دائما أن أحدنا لابدّ أن يكون كاتبا. ولم أكن أوافقها على ذلك. الأمر هنا لا يتعلق بالدونية أو الفوقية في الموهبة، إنما كان بمثابة هبة منها وكأنها تقول: اشتغل أنت لأنك أقدر مني ومنضبط. أنا متعبة. لقد ولدت لكي أعيش كما أريد، لكنهم أرادوا لي حياتي كما أرادوا هم ففشلنا كلنا: هم وأنا (تقصد أسرتها) . جين لم يكن لها انضباط في الكتابة. لقد مزقت كثيرا مما كنتُ معجبا به. إنها جين، ومن كان يستطيع منعها من أن تفعل شيئا أو أن لا تفعله!؟ لا مؤاخذة لي عليها. كانت رفيقة طيبة. ينبغي لنا أن نتعلم كيف نحبّ بعضنا البعض حتىّ في أسوأ تفاهمنا.

إن جين مدفونة في مقبرة سان ميجيل في مالقة، لكن في قبر مجهول الاسم وعمرها ٥٦ سنة. قضت منها ١٦ . وبما أن الأمر يتعلق بمقبرة كاثوليكية فإنّ المسموح به، إلزاما، هو إقامة صليب فوق قبرها. لكن

بول لـن يضع صليبا فوق قبر جين؛ لأنّها هي نفسها لم تكن مقتنعة بذلك. إنه يقول: «فيما يتعلق بي، فلا قبر هنالك. أنا لا أومن بالمقابر والقبور. أيّ جدوى من ذلك؟ أمن أجل البكاء على الموت؟ هل لتجاوزه؟ إننا لا نقدر أبدا أن نتجاوزه. إنه دائما معنا. على كل حال، فأنا لست قادرا على تجاوزه؛ لأنه يفقدني صلتي بالعالم. أظن، وعلى مستوى عريض، أني عشت بالوكالة دون أن أعي ذلك. وعندما لا أجد أحدا أعيش من خلاله أو غيره فإني سأكون قد انقطعت عن الحياة.»

من حسن الحظ أن بول يخشى الموت مثـل الآخريـن ولا يجعل منه مأساته الخاصة، لكنه لم يندم على شيء حتى وإن كان قد آلم الغير وسبب لبعض الناس ضررا سواء في سلوكه أو في أعماله الأدبية المرتبطة بالشر والزاخرة بالبطش والموت العنيف. وطبعا فإنه لم يعاهد نفسه على أن يكـون قديسا حتى يستغفر شيئا. حياة جاءت، حياة مضت، وهناك أشياء لـم تـأت وأشياء لـم تذهـب.

عاش بول بوولز في المغرب مؤمنا أنه أجنبي غير مرغوب فيه ولامصالحة معه. «إنهم لا يقبلونني، لم يقبلوني أبدا. مازلت أعتبر أجنبيا هنا.» هكذا صرّح في استجواب أجراه معه خيسوس رويث مانطيا Jesus Ruiz Mantilla لجريدة البايس El PAIS (٣٠.٥.٩٥.) حيث يحذر من الاسلام مقتنعا بأن القرن القادم سيكون موسوما بالمواجهة بين المسلمين والغرب.

هذا العداء، إنْ كان موجودا من طرف المغاربة له، خلقه هو ولم يخلقه المغاربة تجاهه. ومعلوم أن بول، أينما يكون، يعيش دائما في

حالة حصار وبارانويا. إنه يتوهم أن هناك دوما من يتجسس عليه ويتوجس به شرا مثل سلب ماله، مثلا، الذي يتحدث عنه بتقديس وعبادة. بول جدّ بخيل، هذا من حقه، لكن ليس من حقه أن يتوصل سنويا بعائدات حقوق نشر كتبي التي ترجمها ولا يعطيني قسمتي ماعدا التسبيقات الهزيلة التي آخذها عند التوقيع على العقد. ثم هو يأخذ ٥٠ في المائة عن حقوقه في الترجمة.

كنت أزوره أكثر من مرة في الأسبوع. لم يكن زواره كثيرين مثل اليوم. لقد صار بعضهم اليوم يسجل آخر كلماته، وهو في فراشه، على غرارما فعلوه مع تولستوي عندما هاجر أسرته وهام بحثا عن نهاية مريحة بعيدا عن زوجته الملهوفة على حقوق نشر كتبه ومصير أراضيه التي أوصى بها للفلاحين الفقراء. لكن بول لايفكر أبدا أن يصبح قديسا في بلد يعتبر أهله همجا وبلهاء. إنه يكره الفقر، هذا من حقه، ويحتقر الفقراء هذا ليس من حقه. ثروته التي سيخلفها، (أكثر من سبعمائة ألف دولار حسبما قال لي روبيرطو دي هولاندا) سيتركها لأحد الأبناك لتُستَثمر من أجل مساعدة مؤسسات فنية أو غيرها. اليوم دائما هناك أكثر من زائرمن طنجة أو من الخارج. أحيانا تجد خمسة أو ستة متعددي الجنسيات يحاورونه باللغات الثلاث: إنجليزيته، والفرنسية والاسبانية اللتين يتقنهما. إنه للياقته، لا يرفض استقبال أحد إلاّ إذا كان الزائر قد زاره من قبل وأزعجه بأسئلة لايحبها. لكن المرابط يتكلف بهذه المهمة إذا كان حاضرا: فإذا لم يرق له الشخص، هو بالذات، فإنه لا يتردد في طرده حتى وإن شاء بول

بقاءه. غير أن ما يضايق بول حقا هو أن تطلب منه سلفة مهما يكن مبلغها. إنه يبلع ريقه عدة مرات بصعوبة وينظر اليك باندهـــاش وشحوب خافضا عينيه مفكرا قبل أن يوافق على مضض أو يرفض بأدب بالغ. كنت أشتغل في التعليم. وقبيل نهاية الشهر يذكّرني إذا كنت مدينا له: «لاتنس أنك مدين لي بـ. . .» وطبعا لم يكن المبلغ يتعدّى خمسين أو مائة درهم. أما طلب مساعدة ثلاثمائة دولار من أديب حتى وإن كان يهدد بالانتحار مثل نورمان جلاس[٤٧] فالرفض يتطلب رسالة مشفوعة بالاعتذار، واللف، والدوران، والنصائح، والحِكَم وحسن التخلص. . . هذا مقطع منها: «طنجة ١٦. ١١. ٦٨. على كل حال، فقط يمكن لي كتابة قراري آملا أن لا تأخذه على استياء. عندي صداقة لأهبها، لكن ليس مال. آخرون عندهم مال أكثر من صداقة، بعضهم عنده الشيئان معا، بعضهم ليس عنده شيء من الإثنين. ما العمل. »

إن بول في حضور زواره يتألق ذكاؤه الحادّ دون ادعاء، ساخر بلباقة بالغة، صريح، محايد عند اللزوم، يعطي رأيه دون مُوارَبة وليس عنيدا في النقاش. إنه ينسحب إذا توتر الموقف. عندما لايتفق على فكرة يكتفي بأن يقول: «أووه، الأمر هكذا إذن. لم أكن أعرف. . .» إنه: «يشارك في كل شيء، لكنه لا يتخذ موقفا من شيء.» يعتقد أنه مخدوع، ولذلك فعندما يرى غيره ينخدع يجد عزاء في كونه ليس الوحيد المخدوع.

صحبت تينسي الذي خرجت معه من منزل لويز دو مورون. كنا جماعة. لم أكن مدعوا لكنني أقحمت نفسي لأنّ الرفقة راقتني. جيوبي

كانت مثقوبة وكنت مهددا بالدخول الى شقتي دون أن أتعشّى وأتناول بعض الكؤوس.

كان تينسي سيسافر بعد يومين حين دعاني للعشاء في مطعم الجُنَيْنَة Djinina صحبة بول، والمرابط وعبد الواحد. وطبعا فإنّ تينسي هو الذي دفع الحساب. أعتقد أن بخل بول حالة مَرَضية: إنه يوفّر حتى لا يفقر، لكنه يعيش الفقر ذاته.

مرة سألته:

– لماذا تنشر كتبك عند بعض الناشرين اللصوص مثل بيتر أوين؟

– لأنني لست هناك ليكون لي الاختيار. كيف يمكن لي أن أراقب نشر كتبي وأنا هنا وهم هناك. إن معظم الناشرين أوغاد. يفعلون مايشاءون خاصة إذا كنت تعيش في بلد بعيد عنهم. إنهم هكذا.

وكنت أقول لنفسي: إنك كذاب يا سنيور بوولز. كان يستلم عائدات المبيعات مباشرة أو نسخة من الشيك المدفوع لحساب بنكه في نيويورك يبعث له بها وكيل أعماله وليم موريس أجِنْسي. وطبعا لم يكن لي وكيل لأعمالي آنذاك، ولم أكن عارفا بعد أن الكاتب يمكن أن يكون له وكيل لأعماله الأدبية. هذه محنة أخرى تُضاف الى هذا العالم الثالث الذي تُغْتَصَب براءته بمعمودية اكتشاف فيه الموهوبين والمغمورين. لكأنه إحسان وليس عدلا ابداعيا، أو على الأقل، مُناصَفة.

يكتب بوولز الى Carol Ardman: « ١٩ . ١١ . ٧٢. شكري يجيء كل يوم. هو والمرابط لهما عادة جديدة، هي أنهما يتعشيان معا في السوق الداخلي Zoco chico كل ليلة. الآن لا يمكن لي أن أتخيل أيَّ تكهن. لكن أظن أنه إذا كان أحدهما سيؤثر في الآخر (أدبيا)

فسيكون المرابط الذي سيؤثر في شكري.»

لست أدري ممن سمع بوولز هذه الإشاعة! لم يحدث قطّ أننا ذهبنا سويا أنا والمرابط الى السوق الداخل وتعشينا فيه. إنّ تخمين بوولز خائب؛ لأنه (أدبيا)، للمرابط عالمه ولي عالمي وكلانا يتحصن في موقعه كتابة، وحكياً، وحياة ما عدا أننا كنا نذهب، أحيانا، الى إحدى الحانات الليلية في البولفار لنتسلى مع الساقيات Barmaids والنديمات Entraîneuses إحياء لحنيننا المشترك مع بعضهن. لكنه بوولز الذي يستوحي خياله الغُرَفي (نسبة الى الغرفة) ما قد يحدث أو يحدث فعلا أو لا يحدث إطلاقا في الخارج. أما أدبيا فقد أثّـر حقاً المرابط في بوولز الى حدّ الاقتباس منه والتماهي مع بعض نصوصه في قصصه المغربية.

إن بول بوولـز أمريكي أينما كان الأمريكيون أما أنا فربما مغربي فقط في المغرب، في نظره وأمثاله. وأيضا كان اسم بول بوولز يكتب بنفس حجم اسمي على الغلاف كأنما هو يشاركني تأليف كتبي. لا شك أنه إشهار من خلق الناشر مثل بيتر أوين Peter Owen، لكن بول بوولز لم يخجل، هو المشهور والغني، من هذه السفالة التي كان عليه أن يعارضها... ! والأكثر مهزلة هو أن كتبي الأربعة التي أمليتها عليه وترجمها وافق على حقوق نشرها منسوبة اليه مُناصَفة: Copyright Mohamed Choukri and Paul Bowles. كان يفعل نفس الشيء مع محمد المرابط، لكن الأمر يختلف؛ لأنّ المرابط صديقه الحميم، وهو حاضر معه، ويأخذ منه ما يستحقه بطريقته الخاصة، أما أنا فأبقى خارج الدائرة وحجة بوولز أنه يساعدني على الشهرة... !

في السنوات الأخيرة، صار روبيرطو دي هولاندا وكيلاً لأعمال المرابط، وورودريغو ريّ روسا Rodrido Rey Rosa[٤٨] وبإيعاز من المرابط صار أيضا روبيرطو وكيلي.

لقد اكتشف روبيرطو هذا الابتزاز من خلال العقود التي أطلعه عليها المرابط ونسخ الشيكات التي كان يعرف مخبأها في شقة بول. وعندما ناقشه روبيرطو في هذه الملابسات عن حقوق نشر كتبي أجاب بصوته الرخو، الجامد، الساخر، اللامبالي، كعادته: «وبعد، فانّ شكري سكير، إنه يبذر ماله في الشراب وبعد ذلك لا يتذكر ما يستلمه من مال.»

بول بوولز الذي عاش ورأى العوالم يقول مثل هذه السفالة عني. ليس غريبا، فقد احتقر غيري أكثر مما احتقرني: الذين سخّرهم في كتاباته، والذين فقط عاشرهم أواشتغلوا عنده، لكن هذا لا يعني أنني لا أحب بعض ما كتب، وهو أيضا أحب بعض ما كتبت. إلاّ أن هذه نزهة في حديقة أخرى.

٦.٣. ١٩٩٤ (٣٠ – ١١ صباحا).

التقيت رامون ورفيقته قدام مقهى باريس. لم أكن أعرف ما أفعله بنفسي في هذه الساعة. لقد تأملت سقف غرفتي بما فيه الكفاية. أدركت، من خلاله، أن ما يسمى بالحب الحقيقي لا يتمّ إلاّ عبر الحلم ونشوة الخيانة. كلمتني مجهولة هاتفيا:

– هل أنت محمد شكري؟

– نعم.
– أنا فتاة المستقبل!
– هنيئا لك... !
– أعطني خيطا رابطا أيها القواد... !
– إبحثي عمن يضع لك صمّاما في أفواهك المرحاضية الثلاثة ياابنة الطاعون البشري.

كنت أستمع الى إريك ساتي Erik Satie وهي تمَرْحِض كلماتها.

سيزور رامون ورفيقته أنطونيو فوينتيس Antonio Fuentes. كلفهما البارحة بشراء له خبزتين سوداوين. قبلت دعوتهما لزيارته. لم أره منذ سنوات. يشتري طعامه من مطعم صغير قرب منزله. قلما يذهب أبعد من السوق الداخلي. دائما وحيد. كلمته مرة واحدة أثناء معرضه في أواسط الستينات. قال رامون:

– أكيد أنه لن يدخلنا اليوم الى منزله لأنه أدخلنا البارحة. حتى معارفه القدامى لا يستقبلهم إلاّ على فترات متباعدة إذا كان مزاجه رائقا. لابد للشاري من أن يصحبه أحد يعرفه، لكنه لا يستقبل أكثر من ثلاثة أشخاص، وليس قبل الحادية عشر صباحا، وأن لا يكون يوما ضبابيا. إذا لم يشترلوحة فلن يدخل مرة أخرى. إنه يقترب من التسعين وذاكرته مازالت قوية ومشرقة.

الباب قديم لا لون له. دقّ رامون عدة مرات صارخا: رامون وصونيا. يعتمر قلنسوة من الصوف، لحيته البيضاء غير حليقة منذ أيام. قدمني إليه رامون:

– كاتب مغربي.

قال بالدارجة المغربية:

– أنت من طنجة. هذا مِزيانْ! (أضاف لهما) إن له وجه فنان. إني أرى ذلك. يبدو عليه شيء مميز!

فكرت: ربما أثاره أنفي المعقوف! التفت الى عاملين يُبَيِّضان جدران مسجد "الجامع الجديد" داعيا لهما بالعون والبركة. يحيّي كل من يمرّ بالدارجة المغربية "الله يعاونك." ثم قال لنا:

– المغاربة يقدسون العمل. إنه عبادة لهم مثل الصلاة!

مدّ له رامون الخبزتين الملفوفتين في كيس بلاستيكي صغير أبيض. تأمل الخبزتين وقال:

– إنه خبز على كل حال، لكنه ليس هو الخبز الأسود الحقيقي الذي أعرفه. هو مازال موجودا في السوق الكبير. فقط أنه أغلى قليلا من الخبز الأسود العادي المغشوش وينبغي أن تعرف من أين تشتريه.

ودعناه فقال رامون:

– إنه لا يكاد يخرج. أطفال الحيّ والجيران هم الذين يتسخرون له. إنه عدوّ النظافة. أثاثه المُراكَم، المغبرّ تعشش فيه الفيران. بعض لوحاته بدأت تتأثر بالرطوبة. زاره القنصل الاسباني بابلو برافو Pablo Bravo وزوجته صون صوليص Sonsoles. اقترحا عليه ترميم جدران الغرف المتصدعة وصباغتها. قال لهما، كأنّ شيئا سيؤخَذ منه عُنْوَة: أرجو أن يبقى كل شيء كما تريانــه الآن. هكذا تعودت على حياتي.

سألتُ رامون:

- سمعت أنه بخيل جدا وغني.
- إن أعظم ما اخترعه الانسان هو الفن والمال، هكذا قال لي.
- ولمن سيترك ثروته؟
- يقال أن أحد الأبناك في طنجة سيتكلف باستثمارها، لمن؟ لا أحد يعرف بعد ما كتبه في وصيته. (٤٩)

قلت ضاحكا:

- بول بوولز فعل نفس الشيء. وهو أيضا عاش فقيرا وسيموت غنيا.

بعض القصص التي كتبها بوولز مستوحياأجواءها من المغرب، قائمة، أساسا، على «السحور» Es'heurs وليس Tseuheur كما ينطقها ويكتبها بوولز ومعناه «السِّحر» الخفيف القائم على الإيهام «بالتعزيم» المكتوب على ورَقة أو على شيء مثل البيضة، و «التوكال Ettoukal» وليس TSOUKIL كما ينطقها ويكتبها بوولز وهو «المأكول أو المشروب» ومعناه «السِّحر» الفعّال، السّام، والهدف منه هو قهر الشخص جسديا ومعنويا حتى يتمّ الاستسلام، و الإشلال (الجزئي أو الكلي) - حسب الكمية المتناولة - وقد يؤدي الى الموت كما في قصة «بني ميدار.» وأخفّه هو فقدان الذاكرة Amnésie كما في قصة «البستان» (٥٠). السحور بالتعزيم يمارسه الرجال الذين درسوا في «المسيد» (الكُتّاب)، وتسميهم العامة عن جهل «الفقهاء.» أما «التوكال» فغالبا ما تمارسه النساء لجهلن القراءة والكتابة.

والشائع أيضا أن «السحر» القويّ الفعّال يمارسه اليهود وتلامذتهم البرابرة. عموما، فإنّ هذه القصص «المسحورة»، التي استوحاها بول من البيئة المغربية، هي جاهزة ومعروفة، غير أن حكايتها بين مدخني الكيف ومتناولي «المعجون» لها خيالها الساحر. . .

الملاحظ هو أن المعجون لا يرد في قصص بوولز القصيرة ماعدا قصة «علاّل» المرعبة. ربما لأنّ مفعوله هو أكثر جهنمية كما يحدث في روايته «دعه يسقط.» وربما أيضا أن المعجون أكثر حضريا، واستحضاره يتطلب مهارة خاصة وثمنه ليس في إمكانية الجميع مثل الكيف الشعبي. إن أشخاص قصصه المغاربة فقراء والمعجون تَرَفٌ باهظ. يتولّد عن السحر والكيف والمعجون الحيلة، الخِداع، الاحتيال، الانتقام والارهاب كما في القصتين: «صديق الجميع» و «الفقيه.» ولعلّ ما يقوله بطل قصة (مدام وأحمد)، هو أصدق تعبير يشمل هذه القصص جميعها: «مدام، كل الناس يمارسون الاحتيال في هذه الأيام. كل الناس.»

الاحتيال، الخوف، عدم الثقةواليأس والاغتيال. . . هذا ما غذّى، على الدوام، معظم كتابات بوولز.

إن بوولز مولع بصوت المؤذن الذي يوقظه، في بعض قصصه المغربية ومذكراته، بشكل صوفي. وهو يرى أن الأذان، يفقده اليوم الميكروفون الكثيرَ من جماليته وخشوعه وعذوبته. إننا نوافقه على ملاحظته هذه، التي لها وجاهتها، لكن من أيّ مصدر أخذ هذا الحكم على المرأة في الدين الاسلامي الذي يورده في قصته "عَصْريةٌ في الجبل" (وجبة

خفيفة عند العصر) ؟:» مع انقطاع النهار، كانت البادية قد بلغت صمتا شاملا. من بعيد كان يُسمَع صوت رخيم واضح. نظرتْ الى مَجيد:

- إنه الأذان؟ أيُسْمَعُ من هنا؟

- طبعا. ليس بعيدا من مَرْشانْ. ما نفع البادية إذا لم يُسْمَع الأذان. من أجل ذلك يذهب المرء للعيش في الصحراء.

- شش: دعني أستمع. صوت جيد. هه؟ إن لهم أقوى أصوات العالم (المقصود المؤذنون) . إنه يحزنني.

- لإنك لا تنتمين الى الدين.

ظلت تتأمل لحظة ثم قالت:

- أعتقد أنك على حقّ.

كادت أن تضيف: « لكن، حسب دينك، فإنّ النساء ليس لهن روح. »

إن بول بوولز ما زال يعتبرونه، هنا، مثل سائح طالت إقامته وليس مقيما. وهذا ما يؤلمه. هكذا قال لي.

حين يأتي له عبد الواحد (سائقه) ببريده فإن أول ما يبحث عنه في الرسائل، داخل السيارة، هوهل هناك رسالة فيها شيك!

«لم تعد لي عائلة. وكل من أعرفهم منها ماتوا. من حسن الحظ أن هذا يمنعني من الذهاب الى أميركا. إني مستسلم للمقدور.» (٥١) لكن بول بوولز ظل يخاف من الرجوع الى أميركا بسبب شكوكه من أن يسحب منه جواز سفره كما يفعلون مع الذين لهم ميول يسارية وله هو

سوابق. أما اليوم فلم يعد له ما يخشاه بعد مرضه، سنّه، «أبو هَوْلَـيِته» (٥٢) وشهرته العالمية. لكنه، مع ذلك، يكتب الى جيمس ليو هيرليهي Herlihy James Leo : «أما بغضي لأميركا فطبيعيّ أنني أخفيه. ـطنجة ١٧ . ٢ . ٦٦ .»

مع مرور الوقت، أخذ أسلوب بول الخاص يتحول موازيا لترجماته من الدارجة المغربية. وهذا ما يفسّر نتاجه عن البيئة المغربية. وهنا يحتج المرابط على أن بول بوولز لم يكن ينقل بأمانة ما كان يمليه عليه من حكايات حسبما قيل له من طرف بعض المغاربة الذين يعرفون الانجليزية واستمعوا الى تسجيلاته وقارنوها مع الترجمة المتصرف فيها. لكن الغريب هو أن بول محا نسخ تسجيلاته مع المرابط.

لقد بدا العمل طيعا وسهلا عندما بدأ ينقل حكايات المرابط؛ لأنّ المرابط يحكي ولايعقّد اسلوبه. وكانت جين تعارض ما يفعله لأنها تريد له أن يكتب كتبه لا ما كان يمليه عليه الساذجون ليستمرّ كاتبا.

التقيت، هذا المساءغييرمو كارلوس Guillermo Carlos. صوفي. طاف العالم. ونحن نشرب كأسا في النيجريسكو Negresco قال:

– مازالت هناك شعوب تعيش براءتها الناضجة، والوجه الأصيل المغربي له هذه الصفة، لكن تنقصه المرآة الذاتية حتى لا يرى نفسه في مرايا أخرى تشوه وجهه الحيقيقي. إنه ينقصه الوعيّ بنفسه، والتقنية الحديثة التي غزته سلبته هذا القُفْل لأنه تعامل معها بانبهاروعمىً. لقد أصبحت الثقافة عالمية، لكن الدورالذي ينبغي أن يقوم به المغرب

هو أن يحمل البراءة الانسانية وهي له!

لم أر غييرمو بعد ذلك. ربما اختفى في مغارة!

إن بوولز، سواء تعمد أم لا، فإنه يشبه بطله في قصته «لو أني أفتح فمي» وهو يرى نفسه جالسا في بارك: «إن المرور يسير على بعد مسافة ما من حيث أنا موجود ممددا على الارض تحت الاشجار. الزمن، اللازمن. أعرف أنه من وراء الاشجار هناك شوارع غاصة بالناس، لكن أبدا لا أقدر على لمسهم. لو أنني أفتح فمي للصراخ فلن يخرج أيّ صوت. وإذا مددت ذراعيّ نحو أحد الوجوه حيث تمرّ صدفة في الطريق القريب، فسيكون باطلا، لانني خفيّ. إن ما لا يُحْتَمَل هو التناقض المرعب: أن أكون هناك و أنا عارف، مع ذلك، فإني لست هناك. لذلك، لكي يوجد المرء فينبغي له ألاّ يكون فقط لنفسه: إنه من اللازم أن يكون إطلاقا للآخرين. من الممكن لأحد ما أن يؤسس وجوده على اقتناع أن الآخرين يعرفون أنه هناك. أقول لنفسي: إنه في مكان ما من هذه المدينة تفكر فيّ السيدة كراو فورد Crawford.»

يحدد بول بوولز مفهومه لبدايته الأدبية، بعد شهرته مؤلفا موسيقيا وناقدا للجاز في الهيرالد تريبون Herald Tribune فيما يلي: «كنت قد قرأت بعض الكتب عن الإثنولوجيا. بدأت أحسّ، شيئا فشيئا، برغبة ابتكار أساطير متبنّيا وجهة نظري للعقلية البدائية. إن الشكل الوحيد الذي خاطرني، لكي أُظهِر هذه الوضعية، هو الاسلوب القديم السُّريالي للتخلي عن الرقيب الواعي، وكتابة ما ينبثق من قلمي. في البداية، بانت لي، من هذه التجربة، أساطير حيوانية. وبعد

ذلك خرافات وحيوانات مُقَنّعة لكائنات بشرية أساسية. وذات يوم أحد ماطر، استيقظت متأخرا. هيأتُ ترِمُس (كظيمة) من القهوة ورحت أكتب أسطورة أخرى من تلك الأساطير. لم يزعجني أحد. واستطعت أن أنجز عملي. قرأته ثم عنونته: «العقرب.» قررت حينئذ أنه يمكن لي أن أُريه لأحد ما. وحينما نشرته فيو View استلمت تهانئ. وهكذا استمررت في خلق أساطير. إن موضوع الاساطير تخلّى عاجلا عن أن يكون (بدائيا)، وأصبح معاصرا، وإن كانت المواضيع وسلوكات الاشخاص ظلت كما كانت في خرافات الحيوانات. من خلال ذلك المدخل الصغير ولجتُ من جديد ميدان السرد القصصي. كنت قد قررت، منذ زمان، أن العالم كان بالغ التعقيد كيما يستطيع المرء أن يعود الى كتابة التخيل ذات مرة. وبما أنني لا أفهم متاهات الحياة كلها، فسيكون من المستحيل عليّ إيجاد مَرْجعيات مشتركة مع القارىء العادي أو المُفْتَرَض. ورغم أني كنت قد بعت قصتين أو ثلاثا الى Harpers Bazar فإنني لم أحسّ بابتهاج كبير إلاّ عندما قَبِلَتْ بارتيزن ريفيو Partizan Revie نشر "مشهد بعيد." هذا يعني أنني أستطيع العودة الى كتابة القصة الخيالية."

إن بول بوولز يعتقد أن الحياة ينبغي أن تنتسب فقط الى الناس الذين يفكرون مثله، لأنّ الحياة هبة، لكن مع وقف التنفيذ.

١٩٩٣.١٠.٢٨

زرت بول صحبة ابراهيم الخطيب حوالي الخامسة مساء. كان قد

انتهى من تناول عشائه وقت وصولنا. كان داخلا الى الحمّام منطويا على نفسه. لا شك أن ألم عِرق النَّسا قد عاوده. عند عودته الى غرفة نومه ساعدناه، ابراهيم وأنا، على الاستلقاء فوق فراشه. عبد الواحد كان في المطبخ. تركت ابراهيم يتحدث مع بول بالاسبانية عن متابعات أدبية صدرت عن بعض ترجمات كتب بول التي يهتم بها ابراهيم، ثم وجَّه لي بول سوآل الزيارة:

– ماذا هناك من جديد؟

أدركت أنه يقصد آخر ما أكتبه. كنت قد أخبرته أني أكتب مذكراتي معه وأشياء أخرى عن طنجة.

– لقد بلغت ١٠٧ صفحة بخط اليد.

إنه ينفعل دائما عندما أذكر له أني مستمرّ في كتابتي عنه كتابا. «ماذا سيكتب عني شكري؟ إنه لا يعرف عائلتي ثم هو لا يعرف عن حياتي الكثير.» هكذا قال لروبيرطو دي هولاندا. ولي قال: «أتمنى أن أقرأ ما تكتبه عني.»

عندما أخبرته أني أقرأ (بول بوولز –المتفرج الخفيّ) الذي كتبه عنه ساويرلوصانو Sawyer-Lauçanno اشمأزّ قائلا:

– إنه كتاب تافه. كُتِبَ بخبث. لقد طلب مني مؤلفه أن أتعاون معه في كتابته خلال زياراته لي فرفضت؛ لأني كنت منشغلا بأشياء أخرى أهمّ، ولأنه أيضا صحتي لم تكن تسعفني بشكل منضبط لكي أستجيب لأسئلته الشاملة عن حياتي وأعمالي. إني أبغض هذا الكتاب ولم أُنه قراءته لأنه يزيف الحقائق عن حياتي ويُسيء اليّ. إنّه يؤول الحقائق

حسب مزاجه. وهو إنسان خسيس.

لقد تأسف بول بوولز كونه لم يعدّ له تسميما عند زيارته الأولى الى طنجة كما كتب في رسالة الى رجينــا فايـن رايـش Regina Weinreich.

طلب منه ابراهيم أن يهدي له تذكارا. قال بول بطريقته المبهمة:

– ماذا تريدني أن أهدي لك بالضبط؟

– أحد كتبك مع إهدائك.

– لكن هذا يتطلب مني أن أنهض وأبحث عنه. سيتكلف شكري بذلك.

حمل له ابراهيم ٥ نسخ من المجموعة القصصية (البستان) التي ترجمها له عن الانجليزية الى العربية. قال ابراهيم:

– في البداية، بدا لي سهلا ترجمة قصصك، لكن عندما شرعت في العمل وجدت صعبا ذلك.

وافقه بول:

– صحيح. هذا مايقوله الذين ترجموا قصصي.

رجاني بول أن أبحث عن أيّ من كتبه في الغرفة الأخرى. كان عبد الواحد حاضرا معنا. صرنا نبحث أنا وهو عن أيّ كتاب لبول وسط ركام من الكتب فوق طاولة. عثرت على «السماء الواقية» مترجمة الى الاسبانية. وقّعه: «أشكرك على أنك ترجمت قصصي.»

كان بول مبتهجا برؤية بعض نتاجه مترجما الى العربية. كنت أحمل معي روايته (دعه يسقط Let it come down) . طلبت منه توقيعها فقال:

- ماذا، هل يكفي توقيعي فقط؟

- ما تشاء.

كتــب: «الى محمد شكري. مع إعجابي.»

يتنفس بصعوبة هذا المساء. تضاءل جمسه عمّا رأيته في المرة الأخيرة. لأول مرة رأيت في غرفة نومه تلفزة قبالة فراشه، هو الذي كان ينتقدها دائما ويكرهها منذ أن عرفته. قيل لي، فيما بعد، أن كلاوديو برافوهو الذي أهداها له. ماذا يشاهده فيها؟ إنه أحد أسراره! أشرت الى ابراهيم بالانسحاب حتى لا نضاعف تعبه.

قال لي بول يوما: «من قبل، عندما كان عندي التليفون، كانت المكالمات تزعجني؛ لأن أشخاصا كانوا يكلمونني إن كنت مستعدا أن أسمح لهم بزيارتي أم لا، أما اليوم فالأمر أكثر إزعاجا ومُحرجا؛ فعندما أفتح الباب، لمن يدق، أجدني مضطرا الى إدخاله. هل سيصدقني إذا قلت له أنا مشغول أو تعب؟»

حينما خرجنا قلت لإبراهيم:

- أخيرا، أهدى لك «السماء الواقية.» إنها «طريدة هشة!» (٥٣) أليس كذلك؟

إبراهيم لا يعلق على مثل هذا المُزاح. إنه يكتفي بالضحك المُقْتَضَب المبهم.

من مــذكرات جون هابكــنز JOHN Hopkins عن بـول بـوولزفي كتابه Carnets de tanger كراسات طنجة (٨. ٢. ٦٤.) : قال لي بول البارحة بأنه لا تهمه أمزجة اللحم والدم، لكن الناس كأوعية للأفكار مثل كامو Camus. خاصة الأفكار المجردة التي تهمه أكثر من البشر.

٢٣. ٨. ١٩٦٤

إرفنج روزنطال Irving Rosenthal يدخل شقة بول صارخا ثم لجأ الى ركن ويداه فوق عينيه. سأل بول روزنطال:

– ماذا يحدث؟

– ذلك الشيء! ماهو؟

– إنه ببغاء.

– أبدا لم أر واحدا من قبل. أبعده عن ناظري!

قال إيرا كوهين:

– أعرف أنه مذنب، لكني لست متأكدا ممّاذا!

نورمان كلاس Norman Glass رفع دعوى قضائية ضدّ أمه «كونها يهودية.» هذا هو النوع من الأمزجة التي يمكن أن يجدها من يزور بول في شقته.»

الجنس كان، بالنسبة لبول، محيرا، مخيفا، جاهلا إياه، ثم هو مقرون بالفجور. لكننا لاينبغي، هنا، أن ننسى أنه وريث تقاليد انجلترا الجديدة التطهرية. كتب الى شارل هنري فورد من طنجة في (١٩٤٧.١١.١٩) : «تسأل عن الحياة الجنسية في طنجة. لي إحساس أنها تغيرت تماما. لم أخبرها أبدا جيدا حتى عندما كنت شابا.»

«ذات ليلة، وأنا في التاسعة عشرة من عمري، ظللت مندهشا حين فطنت أنني رميت سكينا على أبي. خرجت بأقصى سرعة من الدار مكسرا زجاج الباب الرئيسي ونزلت راكضا في الطريق المنحدر

تحت المطر. لم أكن قد جريت أبعد من ثلاثة مساكن حينما أدركني أبي بسيارته. أوقفها ثم راح يركض ورائي: «أريد أن أتكلم معك. لا تعد الى فعَل ذلك مع أمك. لم تكن فكرتي أنا أن ألاحقك لأبحث عنك.»

في هذا الحادث، ربما أدرك بول بوولز أن الانسان يستطيع، إذا كان ذلك ضروريا، (حتى ولو كان في هذه المواجهة خُسرانه) أن يصارع إلاهه. غير أن بول لم يكن قادرا على أن يتحدى كل من أنكر عليه مواهبه الباكرة. لقد وصل الى باريس في العاشر من أبريل العام ٣١. وزار جرترود شتاين المهيمنة، والوصية على المبدعين المغتربين الأميركيين كما صار هو فيما بعد في المغرب عندما أصبح مثل «أبوالهول.» ذات مساء أطلعها بول على قصائده الشعرية التي قلّد فيها السّرياليين. وبعدما قرأ عليها، بحذر، أبياته، نطقت هي بحكمها: «طيب، المشكلة الاساسية هي أن كل هذا ليس شعرا.»

إن جرترود شتاين أنكرت عليه موهبته الشعرية وتنبأت بفشلها، لكنه استمرّ هو في كتابة الشعر بعناد. لكنه شعره كان تلخيصا لنفس المواضيع التي سترد في رواياته وبعض قصصه. أما نثره فظل عاديا لم يطوره بالتنقيح الذي لا يوليه كبير أهمية حتى يُشَعْرِنَه Poétisée تعويضا عما فاته في الشعر المحض.

بالنسبة لبول كان أكثر أهمية له أن يكون شاعرا من أن يكون معتبرا شاعرا. لكن هذا الطموح أفلت منه ولم يحققه أبدا وإن ظل يحلمْ به حتى الآن وهو في بداية السادسة والثمانين من

عمره. لقد ظل مسكونا بهاجس كتابة قصيدة بين فترة و أخرى الى حدود السبعينات. (٥٤) إنه يريد أن يتجذر في الشعر ولو أنه خاسر فيه، على نحو ماقاله سترافينسكي: Stravinsky «الآخرون مازالوا رومانطيقيين، أما أنا فإني رومانطيقي.»

قالت جرترود شتاين لبول: «إنك همجيّ مصنوع.» ولقد كافح طوال حياته، من خلال كتاباته، كي يتخلص من فكرة أنه نتاج أبيه، وكل ما يُصْدِرُ الغير عنه.

إن الخصاص المادي الذي كان يشتكي منه دائما بول بوولز هو أيضا يعرف كيف يتغلب عليه بطريقته الخاصة. يقول عنه صديقه فرجيل طومسون: «كان يمثّل كأنه مُخنَّث، ومن خلال ذلك كان يكسب مالا وصداقات. لكن في الحقيقة لم يكن مهتما بالقضية الجسدية.» ومع ذلك، فإنّ إدوار روديتي يحكي أن «بول بوولز، جسديا، كانت له شهرة كبيرة بين الأندية الزاهية في باريس. دائما كان يتبدّى نفورا. الأمر معه أن كل شيء كان ذهنيا.»

بدءا من هنا، ينبغي أن نفهم أن بول في العشرين من عمره عاش رافضا الجنس من أساس وجوده، وليته لم يكن موجودا. غير أنه لم يكن يرفض علاقة المُشْتَهي للمُغاير (إشتهاء أفراد الجنس الآخر) Hétérosexuel. كان يجدها أكثر قبولا من اللواطة Homosexualité. لكن هل حققها في حياته؟ كل هذا يعني أن بوولز ورث نوعا من تطهرية انجلترا الجديدة، ولم يقدر أبدا أن يتخلص من ملازمتها له في حياته الشخصية، وفي حياة أشخاص بعض قصصه الأميركية. إن الجنس

يبقى عدوه الأكبر، وبسببه يحدث سوء التفاهم ومعظم المآسي بين أبطالــــه.

لقد أتيحت لبول، في عدة عواصم، فرص لكي يتحرر من كبته، ولكنه لم يستطع أن يستجذر ما كان متجذرا عميقا فيه. إنه يحب عالم الجنس في شــذوذه، لكن دون أن يشارك فيه عمليا بالمعنى العميق. كان يكتفي بدور المشاهد عن بعد أو المتلصص Voyeur. هذا يكفي لاستثارة لذته الجنسية. كان دائما يخاف أن يُغتَصب جنسيا؟! هذه اللذة الجنسية ظلت مثل محاولة القبض على سمكة في الماء باليد فصارت نوعا من السادية الإسقاطية على أشخاص أعماله القصصية والروائية مثلما فعل جوستاف فلوبير في روايته سلامبو.

من قبل، لم يكن القراء يستثيرهم أدب بول بوولز، أما اليوم فقد بدأ يغزوهم. قد يكون في هذا الاهتمام الفائق بأدبه وسيرته ردّ الاعتبار لأنه أصبح يطابق ذوق العصر. لقد خلق لغزه: أسطورته. ليس بدعة أن يخلق الانسان أسطورته، غير أن كل أسطورة لا يخلقها إلاّ العبقري.

يضع بول بوولز بينه وبين الحقيقة المعيشة حجابا سميكا، لكن هل بقي السُّمك يُصامد هشاشة الحياة؟ إن الجبرية التي احتمى بها، في زمن ما، لم تعد تنفعه اليوم في شيء. لقد استسلم. الحياة التي لم يؤمن بها انتصرت عليه. عندما كتب روايته الأولى «السماء الواقية The sheltering sky بين ٤٧ – ٤٨ في باب الحديد – فاس(°°) فربما لم يكن ينتظر هذه الشيخوخة التي غزته بطيئا حاملة معها زادها من المرض

فـي ساقـه (عرق النَّسا) ، وسرطان جلدي في وجهه وطنجة أخرى جدّ غريبة عن التي في مخيلته التذكارية. نموت ولا نعرف سرّ طنجة. هل يَصْدُق وَعْدُ العَنْقاء؟

هذه الظهيرة، داخلا الى شقتي، كـان هناك، قـرب ليسيـــه رونيو Lycée Regnault، المكي الذي لم يكن هو أيضا ينتظر جنونه. أتذكر ذكاءه المشرق. كان يجتاز البكالوريا ويريد إتمام دراسته في إنجلترا. اليوم لايطلب سوى صمته، وتشرده، وسجائر أو أعقاب. لا يمد يده لأحد. أعطيته واجبي المعتاد معه كلما رأيته. قال وهو يقتل قمله بيده النحيلة:

– ألا تقتل معي يوما ماهذا القمل الذي لا يكاد يفارقني؟

– لقد رافقني طويلا وقتلت منه الكثير. أرجو أن تعفيني.

– إن قمل اليوم أكثر شراسة من قمل أمس.

– أعرف، إنه هو أيضا أكثر جوعا اليوم ويتوالد أكثر.

يحدّق فيّ باسما وأنا أبتعد. ظهر موتشو Mucho. هو أيضا أعفوه ذات صباح من عمله على رصيف الميناء لأنه جُنّ فجأة حينما حمل الكيس الثالث أو الرابع. كان أقوى مجنون في طنجة. ضربته كانت قاضية لمن كان يشاكسه ويعاركه. اليوم شاخت قواه. كعادته معي قال:

– هات حسنة آلوالد!

– ماذا أكلت اليوم؟

– أكلت الخراء وشربت الدم.

ثم مضى يجرّ نصف حذائه. من قبل، كنت أنا الذي أتبع خطى المجانين أينما ذهبوا، اليوم صاروا هم الذين يتعقبون خطواتي. كنت أنا المنجذب اليهم وأصبحوا اليوم الأكثر انجذابا اليّ. ربما رأ ّسوني لأهديهم الى جنون أعمق! هناك مجنون كان تلميذي منذ أكثر من ثلاثين سنة. يعرف خريطة تنقلاتي. عندما لا يعثر عليّ في إحدى الحانات أجده قرب مسكني. طفق يضايقني هذا الانتظار لكي أعطيه الخمسة الدراهم التي يطلبها. قال لي مرة:

– لقد ظلمتني يا أستاذ.

– لماذا؟

– عندما كنت تلميذك أخذت مني كتابا كانت فيه صورة سنجاب ولم تعده لي الى يومنا هذا.

– سأشتري لك إذاً كتابا فيه صورة سنجاب وحيوانات أخرى.

– لا يمكن.

– لماذا؟

– لأنّ ذلك السنجاب كان عجيبا. إنه فريد من نوعه.

– لكن السناجيب متشابهة.

– أبدا لا. هل الناس متشابهون؟

– لا.

– كذلك هو سنجابي. إنه لا يشبه إلاّ نفسه.

– والآن ماذا نعمل؟

– سامحك الله، ولكنك ظلمتني وظلمت سنجابي.

حدجني بكآبة ومضى ملتفتا اليّ بين خطوات وأخرى. قدام مقهى روكسي توقف مطيلا اليّ نظرته الغامضة ثم انعطف وغاب. اختفيت أنا أيضا بسرعة قبل أن يظهر مجنون آخر.

في قصة بول بوولز «كلمات جاحدة» يذكر على لسان كاسطور في الغثيان لساتر: « أنا أُبقي على حياتي. Je me survis» إن بول يتفق مع كاسطور الذي لم يقرأ كتابا واحدا كُتِب خلال هذا القرن وله نفس الاحساس، إلاّ أن بول يفضل أن يقول عن نفسه: « حياتي مماتي Ma vie est postumd «لا حلم دون أقلّ قدر من الشوق. » هكذا قال بول في زمن القلق، والاشتياق والاسفارالبعيدة. لم يعد اليوم مشدودا الى شيء جميل مستقبلي. لا شيء يُولِّد الحلم. لم يعد يهمه سوى كيف ستكون نهايته. منذ سنوات وهو ينام ويستيقظ على ألم واخز كأبرة منغرزة فيه حتى النخاع بعد أن أجريت له عملية على عِرْق النَّسا. كم يتمنى لو أنه ينام طافيا في الهواء!. مأساته اليوم هي أن يسافر قهرا من غرفته في طنجة الى غرفة أخرى في أحد مستشفيات أوروبا أو أميركا إذا عاوده المرض.

قال بول، منذ فترة، في مقابلة تلفزيونية لأحدى القنوات الفرنسية: «على المرء أن يبقى حيث هو موجود. إن العالم تغير كثيرا، ليس هنا في المغرب فقط عندما جئته بل في كل مكان. »

في العام ٥٠. كتب بول الى بيجي جلاند – فيل هايك Hick Peggy -

gland - Vill: «في داخلي أنتظر الهروب الى مكان آخر لا أعرف بالضبط أين طبعا، فالمرء دائما يحب أن يهرب إذا لم يكن له سبب لكي يكون في أيّ مكان. وأنا ليس لديّ أيّ مكان، ذلك يقين. إذ حينما أشتغل لا أفكر في ذلك، إني أحسّ أن الهروب هو أقلّ عجالة، بحيث إن العمل يمارس تأثيرا علاجيا. لكن عندما يشعر المرء أن الداعي الوحيد للعمل هو القدرة على نسيان الحياة الشخصية سيشعر أحيانا أنه مفتون كونه يعتبر العمل شيئا ما عبثا، مثل الأقراص التي يتناولها لتسهيل الهضم. فبين شيء وآخر كان ينبغي أن يكون هناك متوسط ما، لكن ما هو؟ لا أحد يعرفه بالتأكيد.» أما جين بوولز فقد كانت تهرب داخل نفسها مكتفية بأنّ « الحياة هى إحراق أسئلة » كما يقول أنطونان أرطو. وأن (تسافر) خارج نفسها وتذهب بعيدا (وحدها) فذلك يشكل حاجزا منيعا بالنسبة لها. إنها مِهْمازية في كل شيء. لابدّ لها من أحد يدفعها ويأخذها من يدها بحنان. وحينئذ تنقاد ولو كان المسير الى الجحيم.

كانت جين قد عانت نوبة سكتة «مخية» Apoplexcid ليلة ٣٠ إبريل. ولم تستعد وعيها حتى ماتت يوم الجمعة ٤ مايو١٩٧٣. ظل بول جالسا جنبها الى السابعة مساء ثم رجع الى الفندق. وفي التاسعة أخبرته رئيسة الممرضات هاتفيا بأن جين قد ماتت منذ قليل. وفي اليوم التالي كا ن الدفن خاصا تماما في كنيسة القلب المقدس.

بعد موت جين كتب بول من طنجة (١١ . ٥ . ١٩٧٣) إلى أدري وود Adrey Wood: «الآن لم يعد شيء يستبقيني هنا، ماعدا العادة، لكن من

المحتمل أن أبقى حتى ترغمني ظروف خارجية على الذهاب، وإنه في كل مرة رجعت الى الولايات المتحدة تبيّن لي أنه المكان الذي يقل حبّي للعيش فيه.»

الهوامش:

١– حرفياً: تاريخ طنجة الصغير.

٢– معروف عن بوولز أنه كان قد تخلّى عن ركوب الطائرة منذ زمن بعيد لشدة خوفه منها، أما اليوم فلم يعد يخشى السفر فيها بعد أن أرغمه مرضه أو تلبية لدعوات تلفزيونية فسافر الى فرنسا والولايات المتحدة واسبانيا.

٣– روايته الأولى، صدرت في لندن: John Lehmann 1949.

٤– Beatnik ابتكرها الصحافي هرب قاين Herb Caen في سان فرانسيسكو.

٥– يذكر عنها همنغواي أنها كانت مستحوذة، ومستبدة في آرائها، لكنها، أحياناً، لا تخطىء في نصائحها. وذكر لي بوولز أن جرترود شتاين لم تكن ترغب في أن يزورها، مثلاً، عزرا باوند، لأنه كلما يجيء عندها يكسر لها كل ما كان قابلاً للكسر، إذا هو لمسه. وبسبب تقلباتها كانت تخسر أصدقاءها الواحد تلو الآخر كما يؤكد همنغواي.

٦– من استجواب أجراه معه في طنجة المراسل الخاص لجريدة EL Païs أندري. ف. روبيو في ٢٩/٣/١٩٩٢.

٧– (١٩١٦–١٩٨٦) جاء ممنوحاً من طرف مؤسسة بولبرايت Fondation Bulbright في يوليوز ليقضي هو أيضاً الصيف فبقي ٢٥ سنة. رسام، مخترع وكاتب. درس في السوربون. كتب بالاشتراك مع برّوز عام ١٩٦٠ المُبيد El exterminador. استضافه بوولز الى المغرب حيث عاشا وسافرا معاً عدّة أشهر قبل أن يستقر براين جيسن في طنجة.

٨– بول بوولز ينطق أسهل الكلمات خطأ: الحمام ينطقه حمان، المجمر: مجماح، الغيطة: الريطة، المقدم: المقدن وغيرها كثير كما ورد في سيرته الذاتية وكتبه

الأخرى.

٩- في ربيع هذه السنة كان برّوز قد قتل زوجته جان Jean أثناء حفلة واضعة كأس الشمبانية على رأسها فأخطأ حيث انفجرت جمجمتها. وكان قد مارس معها هذه اللعبة من قبل.

١٠- عنوان الرواية مأخوذ من ماكبث. الفصل الثالث، المشهد الثالث: بانكو Banquo: سيسقط المطر هذه الليلة.

المجرم الأول: دعه يسقط (يهجمون على بانكو.)

١١- ينبغي الإشارة هنا الى أن الوصي الشرعيّ على المسودات الحقيقية للغداء العاري هو آلن غينسبرغ، حيث كان برّوز يبعث له بكل ما يكتبه وغينسبرغ كان يرتب الأوراق الى أن انتهى المخطوط.

١٢- كلمة عربي في هذا النص يقصد بها برّوز المغربي.

١٣- أخبرتني المستشرقة السويسرية كلود كرول بوفاته يوم ١٠/٦/١٩٩٢ بنزيف داخلي بسبب سقوطه في سلم أحد فنادق إشبيلية.

١٤- بول هو الذي اقترح لها هذا العنوان بدلاً من «بقول الأموات».

١٥- مسرحية سارتر التي كان بوولز أول من ترجمها الى الانجليزية.

١٦- عموماً، يطغى الرعب والسادية والعنف على أعمال بول بوولز.

١٧- طاو يوانمينج ولد في نهاية القرن الرابع الميلادي. نزعته مبنية على التوافق مع الحياة لا الثورة عليها.

١٨- كاتب انجليزي. عاش فترة في شمال إفريقيا خاصة في طنجة إبّان الستينات. ترجم من الفرنسية الى الانجليزية رحلة الى الشرق لجيرار دو نرفال Gérard de Nerval.

١٩- سيدتان رزينتان.

٢٠- أو حرفياً: خارج - داخل العالم.

٢١- روائية أميركية، كاتبة سيرة جين بوولز ونشرت أيضاً مجموعة من رسائلها.

٢٢- ولدت في طنجة بقرية المراين ناحية رأس اسبارطل Cap spartel حوالي عام ١٩٢٨ ويقال انها توفيت في ١٩٨٩.

٢٣- الصّهدان أو الصيْهدان: شدة الحرّ.

٢٤- قبعة كبيرة تعتمرها المرأة الجبلية اتقاء للحرّ.

٢٥- يعتقد بعضهم أن مرض جين كان نتيجة (التوكال) السّام الذي وضعته لها الشريفة بالتدريج في الأكل فسممها وسبب لها شللاً لازمها حتى مماتها. وبطلب من جين أهدى بوولز للشريفة منزله في حيّ "أمراح" المؤدي الى باب البحر في القصبة.

٢٦- Sadomasochiste : الشخص الذي تزدوج فيه السادية والمازوخية.

٢٧- بطل رواية بوولز "دعه يسقط". البطل هنا يقتل رفيقه التهامي تحت تأثير "المعجون".

٢٨- إشارة الى روايته.

٢٩- إشارة الى قصتين له.

٣٠- محلول الأثير Ether (شديد التبخر والاشتعال) وهو نوع من الغِراء أو الصمغ يستعمله بعض الشبان بالشم للتخدير.

٣١- حي شعبي في تطوان.

٣٢- المقصود هنا الجماعة من الناس.

٣٣- المقصود "الجوقة الموسيقية".

٣٤- ١٩٤١- ١٨/ ١١/ ١٩٩٥.

٣٥- ينبغي أن نقول هنا ان بول بوولز يكاد يعيش، بعد الاستقلال، في غرفة موجودة في طنجة وليس في المدينة. مما سيخاف المغاربة؟ من الحرب؟ لقد كانت حربهم، رغم أنهم كانوا يعرفون أنها خاسرة مع الغرب إلا البلهاء منهم الذين آمنوا بالانتصار الحقيقي على غرار ما شاع في حرب الأيام السبعة. ان بوولز هنا يهوتر، وبعيداً جداً عن الواقع.

٣٦- من فيلم جبّار طنجة «بول بوولز وعزلة طنجة».

٣٧- إشارة الى كتابه المشهور.

٣٨- الشاعر الانجليزي كريستوفر مارلو Christopher Marlowe (١٥٦٤-١٥٩٣) مؤلف الدكتور فاوست.

٣٩- إشارة الى مسرحية سارتر.

٤٠- أشهر حانة في زمانها، أسسها المغني أنطونيو سيفيا Sevilla عام ١٩٢٧، وكانت عبارة عن ناد صغير للفنانين.

٤١– اسم حانة أخرى أصغر منها، أسستها مدام لاماركيز.

٤٢– المربط جدّ ماهر في الطبخ.

٤٣– قيل أنه كتب أحبّ رواية إليه «المتسكعون الروحيون» Les clochards célestes خلال ثلاثة أو أربعة أسابيع.

٤٤– شخصية من رواية «دعه يسقط».

٤٥– من كتابه «أيام ورحلات».

٤٦– مدير أبحاث الشرق الأوسط.

٤٧– معروف بكثرة شكاواه عن إفلاسه المادي وتذمره ومراوغاته.

٤٨– كاتب شاب من غواتيمالا أقام سنوات في طنجة. ترجم بعض قصص بول بوولز الى الاسبانية، وفعل بول بوولز نفس الشيء فترجم له قصصه الى الانجليزية. ومن المحتمل أن يرث هذا الشاب الحميم حقوق نشر مؤلفات بوولز كما قال لي روبيرطو المطلع على هذه الاشاعة.

٤٩– مات في صيف هذا العام (٩٥). عثروا في منزله على أربعة آلاف درهم ورسوم ولوحات صباغتها من النوع العادي الرخيص.

٥٠– قصتان لبوولز.

٥١– من الفلم الوثائقي الموضوع عنه: أميركي في طنجة.

٥٢– نسبة الى «أبو الهول».

٥٣– إشارة الى إحدى قصصه بنفس العنوان.

٥٤– ظهر له ديوانان: «شجيرات الربيع» عام ١٩٧١ و«قريب من اللاشيء» عام ١٩٨١. تواريخ نشر القصائد من العشرينات الى أواخر السبعينات.

٥٥– يقال أنه كتبها بالفرنسية مثل جين التي كتبت روايتها الأولى أيضاً «الحوذي المنافق» بنفس اللغة.

صدر حديثاً عن منشورات الجمل

واسيني الأعرج

ذاكرة الماء، رواية

* *

خالد المعالي

الهبوط على اليابسة، شعر

* *

سركون بولص

اذا كنتَ نائماً في مركب نوح، شعر

* *

عارف علوان

محطة النهايات، رواية

* *

نيكولاس بورن

التزوير، رواية

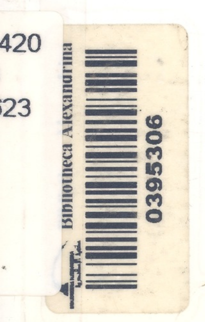
ت: حسين الموزاني

* *

شاكر حسن آل سعيد

دراسات تأملية







منشورات الجمل ١٩٩٧